ومضات برقت
عبر سنين مضت

1 - 8

د. محمد بن موسى الشريف

رحلتي مع القراءة

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

• ومضات برقت عبر سنين مضت

رحلتي مع القراءة

بقلم
محمد بن موسى الشريف

الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الجزء الثالث، وهو «رحلتي مع القراءة»، وستتلوه من الذكريات -إن شاء الله تعالى- رسالتان على نهجه، وهما:

- رحلتي في طلب العلم.
- رحلتي في التأليف.

وهذا الجزء بينت فيه كيفية إبحاري في بحر القراءة الخضم منذ نعومة أظفاري إلى يوم الناس هذا، وهذا الجزء قد صدر عقب الجزء الأول: «رحلاتي» والجزء الثاني: «مذكرات طيار».

وسأحاول في الذكريات -قدر جهدي وطاقتي- أن أبتعد عن حكاية ما صنعت بلفظ «أنا» و«كنت» وكل تاء المتكلم المكروهة، ولعلي أفلحت قليلاً في هذا، فالذكريات من طبيعتها الحديث عن النفس و أستغفر الله - تعالى- من كل ما يمكن أن ينطبع في ذهن القارئ من الحديث عن النفس والكلام عما صنعت وفعلت بحيث يصير المؤلف كأنما يدعو الناس لرؤية أعماله، والنظر في صنيعه وفعاله، وهذا مدخل كبير إلى الرياء وحب السمعة، لكن ماذا أصنع وبعض هذا هو من شأن كل مَن كتبَ ذكرياته، وعرض على الناس أعماله، هذا وقد تنازعني أمران في نفسي قبل كتابة ما كتبت:

الأول: هو العزوف تمامًا عن كتابة أي شيء طلبًا للسلامة، وإيثاراً للإخلاص وكتم الأعمال.

الآخر: ما أراه فيما أكتبه من بعض النفع للعامة، واستجابة لطلبهم المتكرر في هذا الشأن.

فرأيت تغليب الجانب الآخر، والتقليل قدر الإمكان من الحديث عن النفس، والله المستعان.

هذا وقد شجعت مشايخ ودعاة كثيرين جازوا الستين على كتابة ذكرياتهم، والبوح بما يمكن البوح به من مكنونات أسرارهم لما في حياتهم من فائدة للناس لو علموا تفاصيلها، فمنهم من انشرح صدره ومنهم مَن أنتظر موافقته مع الإلحاح عليه؛ حتى تضاف إلى ما عند الأمة من ذكريات العظماء.

هذا وإني أرى أن الذكريات التي وضعها عظماء الأمة ومقدمو الملة في القرنين الأخيرين لم يستفد منهما المسلمون كما ينبغي بل قَلّ مَن قرأها، وهنالك مشروع بدأته لاستصفاء أحسن ما فيها، فعسى أن يمد الله -تعالى- في مدتي، ويفسح في أجلي؛ لأتمم ذلك، والله المستعان.

ولا شك أن القراءة مفتاح العلوم الأكبر في هذا الزمان، وهي الميدان الذي تتبارى فيه الأمم، فتُنشئ ناشئتها على حب القراءة والتضلع منها، وتضع لذلك خططًا، وتجهد في ذلك كل الجهد، وتتنافس مع الأمم الأخرى في هذا الباب، وما كل ذلك إلا لإدراكها أهميةَ القراءة وما تُسفر عنه من اكتساب علوم وفنون.

وأمتنا قد خوطبت بالقراءة منذ أول نزول الوحي، فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ [الإسراء: ١٤] لكنها اليوم توصف بأنها أمة غير قارئة في الجملة، والناظر لحال الأمة: شبابها وشيبها، ذكورها وإناثها يعلم ذلك منها، ويدرك مدى قصورها في هذا الأمر، ولا بد من تعاضد جهود، وتآزر أعمال وأفكار حتى يعود للأمة حبها للقراءة وتفردها بين الأمم فيها عبر قرون عديدة.

ولما كنت - بفضل الله تعالى- من المحبين للقراءة، بل قد شغفتني حبًا، أردت وضع رسالة أبيِّن فيها بدايتي في القراءة ومنهجي وطريقتي فيها وجوانب أخرى عسى أن يكون فيها نفع لطبقات من الناس، فيقبلون على القراءة ويحبونها بإذن الله -تعالى- وسميتها «رحلتي مع القراءة»، وللقراءة رحلة وأي رحلة هي، فهي تَلْزَم المرء منذ نعومة أظفاره إلى نهاية مدته وحضور أجله.

ثم إنها جاءت استجابة لدعوات طالبتني بكتابة شيء يستفيد منه الناس في هذا الباب فكانت هذه الرسالة بفضل الله تعالى.

فإذا ضُمت هذه الرسالة إلى رسالة «الطرق الجامعة للقراءة النافعة» التي وضعتها منذ سنوات طويلة فإني أظن -والله تعالى أعلم- أني قد بينت للقراء منهجي في القراءة الذي أنصح به الناشئة.

وأسأل الله أن يوفقني للصواب في القول والعمل، وأن يبعدني عن نزغات الشيطان وإضلاله، وأن يجعل ما أكتب في موازين حسناتي يوم القيامة ويبيِّض به وجهي ويرضى به عني، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا والله أعلم وأحكم، وأجلّ وأعظم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامدًا مصليًا

العبد المذنب الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
mhmalshareef@gmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

●●●

تمهيد

كان حظي من الحياة أن أولد في زمن ما قبل الصحوة بل زمن الركود الإيماني والثقافي والفكري في الأمة، وكان ذلك سنة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م، فقد كان ذلك الزمان زمن السيطرة الناصرية والبعثية والقومية والعروبة والاشتراكية والماركسية إلى آخر هذه المذاهب التي لم تزد الأمة إلا ضعفًا وذلاً وهوانًا.

ثم إن بلادنا - خاصة- كانت لا تزال ناشئة دارجة في مدارج العلم والثقافة، والأمية ضاربة بجذورها في الناس، فكان القارئون قليلين، والمثقفون معدودين، واستمر هذا إلى أن أنعم الله علينا بمجيء الصحوة الإسلامية التي ابتدأت في بلادنا في حدود سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ثم تعاظم مدها بعد ذلك واشتد أُوارها، ولهذا حديث آخر، إن شاء الله تعالى[١].

ومن جملة نعم الله - تعالى- عليّ، وهي كثيرة لا تُعد ولا تُحصى، أن حبَّب إليّ القراءة في تلك المدة؛ مدة ما قبل الصحوة، وأنا بعد في زمن الطفولة فكان هذا غريبًا على مَن في مثل سني، وفي مجتمعي آنذاك، ولا أجد لذلك سببًا سوى أنني جُذبت إلى القراءة لتوافر شيء من مادتها في بيت العائلة لسبب أو لآخر، وهذا يبرهن على أهمية وجود مكتبة في البيت مهما صغرت أو قلّ عدد كتبها، ويبرهن أيضًا على أهمية العناية بالأطفال في باب القراءة منذ صغرهم وابتداء تمييزهم فإن ذلك يورثهم حب القراءة والعناية بها بل التعلق بها إذا اشتدت سواعدهم.

(١) قد كتبت كتابًا في أحوال الصحوة، وسميته «الصحوة: تاريخًا وتقويمًا» فليرجع إليه من شاء الوقوف على أحداث الصحوة وأحوالها ورجالها.

فابتدأتُ بقراءة قصص الأطفال التي تصدر في مصر ولبنان آنذاك وعلى رأسها «ميكي» و«بندق» و«سحتوت»، و«سوبرمان»، و«تان تان» وغيرها مما وقع تحت يدي.

وتقويمي لتلك المجلات في الجملة أنها ليست هادفة ولا ذات معان تربوية عميقة إنما هي قائمة على الإثارة والفكاهة - وهذان لا بد منهما للأطفال- لكنها لا تخلو من بعض التوجيه، ولم يكن آنذاك غيرها، أما اليوم فوجدت بعض البدائل الجيدة مثل «فراس» و«سنان» و«الشبل»[1]، وغيرها مما يسد بعض الثغرة المفتوحة في باب مجلات الأطفال.

وأما القصص فلم يكن آنذاك - في باب قصص الأطفال - سوى القصص الغربي المترجم فكنت أقرأ قصص سندريلا ونحوها من كتب سلسلة «المكتبة الخضراء» الشهيرة آنذاك.

أما اليوم فأزعم أن هنالك جهوداً مبذولة في هذا الباب قد أثمرت شيئًا حسنًا لكنه غير كاف.

وكنت كذلك أقرأ دروسي المدرسية بنهم وشغف، فقد كنت -بفضل الله تعالى- من الأوائل في المدرسة، فاجتمع لي الأمران، وحُببت إليّ القراءتان، وأذكر أن أحسن أوقاتي، وأحب أعمالي إليّ آنذاك هو أن أنفرد بقصة أو كتاب مدرسي، خاصة إن كان من المواد التي أحبها وهي حصراً كتب اللغة العربية واللغة الإنجليزية.

---

(١) أظن أن كل المجلات الثلاث قد توقفت فلم تعد تصدر، وهذا من البلاء أن المجلات الهادفة لا تجد مُمولاً لها.

فلما بلغت مبلغ الفتيان وذلك في نحو الخامسة عشرة من عمري أقبلت على قراءة قصص المغامرات نحو «أرسين لوبين»، و«سيمون تمبلار»، وهي قصص تقوم على الإثارة والمغامرة لكنها تكاد تخلو من التوجيه إلى الخير والرشاد، بل تترك -في الجملة- آثاراً سيئة في النفس.

وقرأت بعض الروايات العالمية نحو «أحدب نوتردام»، «والبؤساء» لفكتور هيجو وهي قصص جميلة مؤثرة، حسنة الوضع والعبارة، جزلة رصينة، لكنها تُعد - في الجملة - بعيدة عن المعاني الإسلامية التي ينبغي أن تُغرس في نفوس الناشئة.

وقرأت لنجيب محفوظ بعض رواياته، ولم يعجبني فيها ما يسمى بـ«الأدب المكشوف» أو الأدب الإباحي؛ إذ إنه ألَّف روايات عديدة أفسدها بهذا الذي أورده؛ لأن إيراد مثل تلك الأحداث الماجنة يورث القارئين من المفاسد والشرور ما لا يعلمه إلا الله -سبحانه وتعالى - ودع عنك أخي القارئ ما يحتج به المناصرون لهذا النوع من الأدب بأن الأديب يورد أحداث المجتمع كلها بدون استثناء شيء، ولا ريب أن هذه حجة باطلة؛ فمثل هذه القصص تشجع على الإقدام الفاجر على الفواحش والموبقات وتهوِّنها في أعين الشباب، وقد قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وقد تمادى نجيب محفوظ كثيراً في إيراد القصص الفاحش حتى عُرف به، ودع عنك ما صنعه من تعدٍّ على الله -تعالى- في روايته الملحدة «أولاد حارتنا» وعلى كل حال كنت أشعر عقب

كل رواية أقرأها بعدم الارتياح لكنني لم أكف عن قراءة رواياته إلا بعد إشراق شمس الهداية في قلبي في حدود السابعة عشرة من عمري، فكرهت هذا النمط من الروايات وعزفت عنها، ولله الحمد والمنة.

وآنذاك كنت أقرأ -أيضًا- المجلات التي لا خير فيها، أو لأقُل إن فيها شرًا كثيرًا، وهذه المجلات هي «حواء»، و«آخر ساعة»، و«المصور»، و«الكواكب» التي كنت أجدها في بيتنا.

وهذه المجلات ما زالت قائمة وتبث الفساد والإفساد، تُنشر إلى اليوم بدعم أهل الباطل، وفيها من المفاسد ما الله به عليم، ويقوم عليها رجال ونساء لا يرجون لله وقارًا.

وكنت أقرأ بعض الجرائد المصرية مثل «أخبار اليوم» لأتابع ما ينشر فيها من قصص لا خير فيها.

وقد جرى كل ذلك بدون توجيه من الوالدين تقريبًا، فالوالدة -حفظها الله تعالى- كانت مُدرسة وربة منزل فاجتمع لها من الأعمال ما ملأ وقتها كله على أنها كانت تحاول إفادة أولادها والعناية بهم بكل ما تملك وما تستطيع.

والوالد، رحمه الله تعالى، لم يكن ممن يشجع على القراءة ويوجه -على أنه كان قارئًا نهمًا لما يحب قراءته- فنشأ من هذا أني لم أجد مَن يوجهني لقراءة القرآن وحفظه، أو لقراءة الكتب الإسلامية، أو النافعة المفيدة، وقد قلت لكم آنفًا إن الصحوة لم تبدأ في بلادي عامة وجدة خاصة إلا في سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م وما بعدها، وقد كان عمري آنذاك خمسة عشر عامًا، وقد كان الموجهون -في البدايات الأولى للصحوة وقبلها- قلة قليلة جدًا لم

أجد واحداً منهم لا في مدرسة ولا في حي ولا في العائلة فلذلك بقيت أتخبط في القراءة يميناً ويساراً، وأقرأ كل ما يقع تحت يدي تقريباً لكن بعيداً عن الثقافة الإسلامية وأهلها.

فظل الحال هكذا إلى أن مَنّ الله عليّ بالالتزام، وهُديت إلى العمل النافع، واستيقظت بعد سُبات، وبُعثت بعد موات، وكان عمري آنذاك سبعة عشر عاماً وبضعة أشهر، فتفتحت عيناي على الكتب الإسلامية الشرعية والثقافية، فأقبلت أقرأ بنهم شديد، وأشتري منها ما تسمح به قروشي القليلة آنذاك - فقد كنا في زمن شدة ولله الحمد والمنة- وأقبلت على قراءة المجلات الإسلامية، وكانت هناك مجلتان أقرأهما وأحبهما: «الاعتصام» و«الدعوة» وكلتاهما مصرية، ولم تكن مجلة «المجتمع» قد وقعت في يدي بعد، واشتريت خزانة كتب صغيرة كانت نواة لمكتبة ضخمة بعد ذلك -ولله الحمد والمنة- وكنت أحرص عليها حرصاً شديداً، وأغلقها بالمفتاح، وكنت أراها كنزي من الدنيا، فسبحان الله كيف كنت فرحاً بها، متعلقاً بما فيها، ولم تكن كتبها لتتجاوز الثلاثين كتاباً فيما أُقدِّر الآن.

ثم بعد ذلك أقبلت على قراءة القصص الإسلامية وعلى رأسها قصص الطبيب الموهوب نجيب الكيلاني وهي قصص نافعة مؤثرة مشوقة، وأجمل ما فيها أنها كانت تقوم على أصل تاريخي صحيح معاصر، فقد تحدث عن تركستان ونيجيريا وأندونيسيا وغيرها، لكنه -غفر الله له ورحمه وأعلى درجته- كان يمزج القصص بمشاهد العشق والأحضان والقبلات مما يُخشى معها على قارئها المراهق وغيره أن يتأثر بها على نحو سيئ؛ عدا عن ذلك فقصصه

أجمل القصص الموجودة في الساحة الإسلامية، وهي مما يمكن أن يُعد بديلاً نافعًا وجيدًا عن الغثاء السائد.

منعطف مهم:

كنت بعد الثانوية العامة قد أخذت في قراءة العلوم الشرعية على شيخ فاضل أصولي هو الدكتور محمد علي إبراهيم، وقد كان آنذاك في مرحلة الماجستير في جامعة أم القرى، وقد قرأت عليه علم الأصول وشيئًا من المسائل الشرعية من كتاب فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، وقد بيَّن لي - جزاه الله خيرًا- من دون كتاب محدد في البداية، ثم قرأت عليه في شرح الطحاوية- عقيدة السلف بيانًا شافيًا على قدر استعدادي آنذاك وثقافتي المحدودة، وقد درست عليه غير ذلك من المواد، ولتفصيل هذا مكان آخر، سأورده في الرسالة التالية: «رحلتي في طلب العلم» إن شاء الله تعالى.

وقد كنت متعلقًا جدًا بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن القيم -رحمة الله تعالى عليهما- أكاد لا أقرأ إلا ما صنفاه، وذلك أمر طبيعي آنذاك؛ لأنها هي الكتب التي كانت منتشرة في مجتمعنا في كل مكان، وكان الوالج في بحر القراءة في العلوم الشرعية المبتدئ مثلي لا بد له من الاطلاع عليها لأن كل مَن حوله يوصي بها؛ ولأنها قد بلغت في الصحة والجودة وحُسن التأليف مبلغًا كبيرًا، وهذا أمر لا ينكَر، ولم تكن تمنعني صعوبة طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية في الكتابة ولا صعوبة جمله ومعانيه من مواصلة القراءة، فما صعب عليّ منها، واستغلق على فهمي أذهب به إلى شيخي الدكتور محمد علي فيوضحه لي، جزاه الله خيرًا، فرسخ في ذهني وقلبي طريقة السلف في العقيدة أيما رسوخ،

وقد كنت – وما زلت– أميل لكتب ابن القيم أكثر من كتب شيخه لرقة ابن القيم، وجمال أسلوبه ووضوحه ونصاعته، وحسن عباراته.

وفي أحد الأيام وقع في يدي كتاب للحافظ السيوطي –رحمه الله تعالى– عنوانه: «تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه» وهو في بيان عقيدة المؤولة من الأشاعرة وغيرهم في باب الصفات العلية لخالق البريّة –سبحانه وتعالى– فأخذت في قراءة الكتاب، وأذكر أني كلما قرأت منه فصلاً تعاظمت دهشتي، وأخذني منه شيء عجيب، فهرعت إلى شيخي وقلت له: ما هذا الكتاب، وما هذا الذي فيه، وذكرت له أنه قد علمني شيئًا يخالف هذا كله، فهوّن عليّ ما كنت أجده، وأخبرني مبتسمًا –حفظه الله تعالى– أن الحافظ السيوطي، رحمه الله تعالى، أشعري العقيدة، وأنه لهذا نصر مذهب التأويل في كتابه ذاك.

فقلت له: أنا لا أعرف الأشاعرة ولا التأويل فهل لك أن تبيِّن لي؟

فأخذ يشرح لي شرحًا يليق بسني وثقافتي حتى سُرِّي عني ما كنت قد وجدته من قراءة الكتاب، وبيَّن لي جزاه الله خيراً مسألة الخلاف بين طريقة الأشاعرة وطريقة أهل الحديث، ورجح لي طريقة أهل الحديث، والحقّ أني كنت مقتنعًا بها أيما اقتناع فلم تكن بالشيخ حاجة إلى أن يُجهد نفسه في الترجيح بين الطريقتين، فقد كنت أميل إلى أن طريقة السلف أهل الحديث أسلم وأحكم وأولى، فما سكت عنه الله –تعالى– ورسوله ﷺ يسعنا نحن السكوت عنه والتسليم فيه، والله أعلم؛ لكنه بيّن لي أن الاختلاف بين أهل الحديث والأشاعرة لا يوجب التحامل عليهم ولا القسوة، ولا يؤدي إلى قطع العلائق ولا إلى نبذ المودة والمحبة في الله، وغاية ما في الأمر أننا نعتقد أن ما نحن عليه

من التسليم في باب الصفات هو الحق، وأنهم على خطأ فيما ذهبوا إليه من تأويل وإن أرادوا به التنزيه، وبهذا التقرير المنصف من الشيخ، حفظه الله تعالى، والبيان الشامل والنظر المتوازن حفظني الله - تعالى - من الغلو في هذا الباب الذي اتصف به كثير من أقراني وأترابي، ونشأت على أمرين يصعب اجتماعهما إلا بتوفيق الله -تعالى- وهما اعتقاد الحق وعدم التساهل فيه وفي الوقت نفسه إعذار المخالف وإنصافه وعدم قطع العلائق معه، فما أحسن هذا وما أجمله، وقد جرَّ عليَّ هذا التصور متاعب عديدة ليس هذا مكان بسطها إنما سأبينها في موضع آخر، إن شاء الله تعالى.

وقد سميت قراءة هذا الكتاب بالمنعطف المهم في حياتي لأنني عقبه فهمت أمورًا كثيرة في العقيدة والثقافة والدعوة ما كان لي أن أفهمها قبل ذلك، وعرفت أسبابًا للاختلاف ما كنت مطلعًا عليها من قبل، وتبين لي أشياء لم أكن قد أحطت بها علمًا.

●●●

المبحث الأول:

طريقتي في القراءة

لم يكن لي في صباي طريقة للقراءة فقد كنت أقرأ على غير منهج، وعلى غير هدى، كما بينت في التمهيد.

فلما تحولت إلى قراءة الكتب الشرعية والثقافية لم يكن لي طريقة محددة لبضع سنين سوى أني أضع على ما لا أفهمه علامة؛ لأراجع فيه مشايخي ثم إني بعد فراغي من قراءة الكتاب أضع عليه اسمي وسَنَة فراغي من قراءته، وهذا أمر مهم؛ لأن فيها حفظًا لمراحل القراءة وتدرجي فيها.

ثم لما تعمقت في القراءة رأيت أن أضع علامة على المواضع المهمة في الكتاب حتى أعود إليها فيما بعد، وقد أفادتني هذه الطريقة فيما بعد، فقد كنت إذا أردت الرجوع إلى كتاب قرأته من قبل فإني أقلِّب صفحاته لأعرف المواضع المهمة فيه.

وربما وضعت بعض التعليقات داخل الكتاب على ما أجده جيدًا أو مستهجنًا مما أقرؤه.

وربما وضعت في صدر الكتاب بعد فراغي من قراءته رأيي فيه وفي مصنفه بكلمات موجزات قليلات.

ثم إني انتهيت في القراءة إلى وضع فهرسة خاصة لفوائد كل كتاب أقرأه غالبًا، كبر الكتاب أو صغر، وسواء كانت الفهرسة مطولة أو موجزة، وذاك الفهرست - فهرست الفوائد- هو العمل الأرضى عندي في باب القراءة؛ وذلك لأن الفهرْست يُعد خلاصة ما في الكتاب، فإذا أردت العودة إليه فإني أكتفي بمطالعَة فهرست الفوائد، وهذه الطريقة ساعدتني كثيرًا في كثير من

الحلقات التي سجلتها في القنوات الفضائية، فقد كنت إذا طُلب مني التسجيل في موضوع ما فإني أرجع غالبًا إلى الكتاب الذي قرأته قديمًا في الموضوع نفسه وأكتفي بمطالعة فهرست فوائده لأستحضرها في ذهني مرة أخرى.

ووضع فهرسة خاصة بالفوائد لكل كتاب عمل جليل مهم خاصة أن أكثر الكتب المهمة لا يُعنى بها مؤلفوها العناية اللازمة، ولا يضعون لها فهرسة مفصلة تأتي على فوائدها وعبرها وعظاتها، فإذا كان الكتاب كبيرًا ذا أجزاء متعددة فكيف يُعرف ما فيه منَ الفوائد، وتجد الكتاب ذا الأجزاء الكثيرة يكتفي مصنفه في فهرسته بصفحتين أو ثلاث فيفوت على الناس فوائد كثيرة خاصة في هذا العصر ذي العجلة والسرعة؛ فقد أصبح أكثر طلبة العلم والدعاة والمثقفين لا يقرءون المطولات ولا يلتفتون إليها؛ فإن لم يكن هنالك فهرسة مفصلة تُعينهم على الوقوف على أحسن ما في الكتاب وأجمله فإنهم سينصرفون عنه غالبًا.

وهذا الفهرست ليس هو الفهرست الذي أصنعه للمختصرات والتهذيبات التي اختصرت بها بعض المطولات التاريخية، والحديث عنه سيكون في الجزء الآخر -إن شاء الله- الموسوم بـ «رحلتي في التأليف»، وإن كان يشابهه في بعض الأوجه.

القراءة المطولة:

وقد ساعدني - بفضل الله تعالى - نظام عملي وكثرة خروجي من البلاد على القراءة المطولة؛ إذ إن أكثر الناس اليوم يعتل لضعفه في باب القراءة بقلة الوقت، وأنه إن وجده فسيصرفه في عمل آخر أجدى وأهم في ظنه، أما أنا فأجد للقراءة الطويلة محلاً من وقتي، ومكانًا من قلبي، فاللهم لك الحمد، وأرى أنه لا بد لدعاة الإسلام ومشايخه وسائر المثقفين من القراءة المطولة التي تعود عليهم بفوائد جمة، وأرى أن الضعف العلمي والفكري والثقافي الذي يعاني منه أكثر

أولئك الذين ذكرتهم سببه قلة الإقبال على القراءة، وسرعة الملل منها، وعدم العكوف الطويل عليها، والاكتفاء بصفحات يسيرات كل يوم أو أسبوع.

وكنت أنصح الطلاب الذين ألقاهم في المحاضرات في المدارس وفي المراكز الصيفية أن يجتهدوا في القراءة المطولة في زمن الصبا وأوائل الشباب، فإنهم إن أخطأوا ذلك الزمان فلم يستفيدوا منه لن يستطيعوا -غالبًا- أن يطيلوا القراءة فيما بعده من أزمنة، أزمنة الانشغال بالأهل والأولاد، والعمل والوظيفة، والواجبات الدعوية، والأعباء المعيشية المتعددة، ومَن لم يستفد من فرص الزمان حين إقبالها فلن ينتفع بها حين إدبارها.

قال الأستاذ محمد أحمد الراشد، حفظه الله تعالى:

«إن من مصائب أمتنا اليوم أنها لا تقرأ، ومع ذلك فلا يتجه هذا الخطاب لها؛ لأن طريق الاستدراك طويل، ويبدأ بيقظة الخاصة من دعاة الإسلام ليقودوا البقية، وإنما الخطاب متجه لهذه الخاصة الرائدة القائدة، بل ولفتيان الدعوة الميامين، الذين هم قادة المستقبل، فنِعم الفتيان فتيان الدعوة لو قرءوا.

لقد عرفت شباب الإسلام، وصاحبتهم، واقتربت منهم، فوجدتهم من أنقى الناس سريرة، وأنصعهم طهراً، وأصفاهم عقيدة، وأجزلهم وعيًا، ورأيت منهم تشميراً إلى الخير في حرص دائب، وفراراً إلى الله تعالى من خلال طريق عريض لاحب، لكنها كثافة المطالعة تنقصهم، ولو أنهم أحنوا ظهورهم على كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ طويلاً، واكتالوا لهم من الأدب والثقافة العالمية العامة جزيلاً، لكمُلت أوصافهم، ولتفردوا في المناقب.

وإني لأعجب من دعاة الإسلام الذين أراهم اليوم، كيف يجرؤ أحدهم على إطالة العنق في المجالس، والنشر في الصحف قبل أن يجمع شيئًا من البيان جمعه الطبري في تأويل آي القرآن[1]، وقبل أن يرفع له راية مع ابن حجر[2] في فتحه[3]، ولم ينل بعدُ من رفق أم الشافعي[4] وحنانها[5]، ولا كان له انبساط مع السرخسي[6] في مبسوطه[7]، أو موافقة للشاطبي[8] في موافقاته؟

(١) وهو اسم كتاب التفسير الذي ألفه الإمام الطبري، رحمه الله تعالى.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة ٨٥٢ هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦.

(٣) «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

(٤) محمد بن إدريس بن العباس، أبو عبد الله الشافعي المكي، نزيل مصر. هو المجدد لأمر الدين على رأس المائتين، توفي سنة ٢٠٤ هـ وله ٥٤ سنة. انظر: «التقريب» ص ٤٦٧.

(٥) إشارة إلى كتاب «الأم» للإمام الشافعي.

(٦) محمد بن أحمد بن سهل، أبو بكر، شمس الأئمة. من كبار الأحناف، مجتهد. من أهل سرخس في - خراسان - أشهر كتبه «المبسوط» في الفقه والتشريع ثلاثون جزءًا أملاه وهو سجين في بئر، وكان سبب سجنه كلمة نصح بها الخاقان. سكن فرغانه وبقي بها إلى أن توفي سنة ٤٨٣ هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام» ٥/ ٣١٥.

(٧) كتاب «المبسوط» للسرخسي الحنفي في ٣٠ جزءًا، وهو من أعجب الكتب إذ ألفه إملاء على طلابه، وقد كان مسجونًا في بئر وطلابه حول البئر يسمعون كلامه ويسجلونه !!

(٨) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق الشهير بالشاطبي. الإمام العلامة المحقق، القدوة الحافظ المجتهد. كان أصوليًا، مفسرًا، فقيهًا، محدثًا، لغويًا، ثبتًا، ورعًا صالحًا زاهدًا، سنيًا. له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة مع الحرص على اتباع السنة واجتناب البدعة، وكان من أئمة المالكية. ألف تآليف نفيسة، وله نظم رائق. توفي سنة ٧٩٠ هـ رحمه الله تعالى. انظر: «نيل الابتهاج» ص ٤٨-٥٢.

وكيف يقنع الداعية وهو لم يقرأ بعد المهم من كتب ابن تيمية[1]، وابن القيم[2]، والغزالي[3]، وابن حزم[4]؟

وكيف يسرع داعية إلى ذلك وهو لم يكثر من مطالعة كتب الأدب العربي القديم، ولم يعكف مع الجاحظ[5] وأبي

(١) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، يُدعى لجدته تيميّة. أحد أئمة المسلمين المجتهدين. توفي - رحمه الله- سنة ٧٢٨ هـ بدمشق مسجونًا بعد أن خلف علمًا كثيرًا ومصنفات عديدة. انظر: «الدرر الكامنة» ١/ ١٥٤-١٧٠.

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١ هـ، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة ٧٥١ هـ بدمشق رحمه الله تعالى. انظر: «الدرر الكامنة» ٤/ ٢١-٢٣.

(٣) الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط. تفقه ببلده ثم تحوَّل إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل، وشرع إلى التصنيف، وعظم جاه الرجل، ثم رفض الرئاسة وتزهد وحج، وانعزل عن الناس مدة، وكان خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله. توفي سنة ٥٠٥ هـ، (طوس) رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ٣٢٢ - ٣٤٦.

(٤) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي. ولد سنة ٣٨٤ هـ بقرطبة، وسمع فيها وغيرها، وحدث عن طائفة كبيرة، ورزق ذكاء مفرطًا وذهنًا سيالاً، وكتبًا نفيسة كثيرة. وكان ينهض بعلوم جمة، ويجيد النقل ويحسن النظم والنثر، وكان حافظًا للحديث. توفي سنة ٤٥٦ هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١٨ / ١٨٤-٢١٢.

(٥) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصير المعتزلي، العلامة المتبحر ذو الفنون، صاحب التصانيف. كان ماجنًا، قليل الدين، له نوادر، وهو من بحور العلم. توفي سنة خمس وخمسين ومائتين بعد أن عمر طويلاً. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٥٢٦ - ٥٣٠.

حيان[١]، أو ابن قتيبة[٢] وأديبي أصبهان[٣]؟

وأعجب أكثر من هذا لداعية أثير حماسه لهذه العلوم والآداب فيقول: ليس لي وقت، كأنه غير مطالب بإتعاب نفسه تعبًا مضاعفًا، ولا شرع له السهر!»[٤].

- ومن طريقتي في القراءة أني أتجاوز مواضع أرى أنه لا فائدة فيها لي، أو أني قرأت مثلها من قبل، وبمعنى آخر أني لا أجد حاجة تدفعني لقراءة كل الكتاب إلا إن كان فيها - أي في قراءة كل الكتاب - فائدة جديدة، وبهذا أُخالف من يصر على قراءة الكتاب كاملاً مهما كان مملاً أو فيه مواضع مكرورة أو ممجوجة، وهذه الطريقة التي أسلكها تساعد على المرور بكثير من الكتب في وقت قليل.

---

(١) علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي. شيرازي وقيل نيسابوري. اختلف الناس فيه اختلافًا بينًا، فمن قائل إنه زنديق، ومن موثق. طلبه الوزير المُهَلبي ليقتله فهرب منه ومات في الاستتار. كان متأدبًا، متصوفًا، متفننًا في علوم كثيرة، واسع الدراية والرواية. توفي سنة ٤١٤ هـ رحمه الله تعالى. وانظر: «الوافي بالوفيات» ٢٢/ ٣٩-٤١، و«سير أعلام النبلاء» ١٧/ ١١٩-١٢٣.

(٢) هو العلامة الكبير أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب. نزل بغداد، وصنف وجمع، وبعُد صيته وكان ثقة دينًا فاضلاً. وكان رأسًا في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس. مات ببغداد فجأة سنة ٢٧٦ هـ رحمه الله. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١٢/ ٢٩٦ - ٣٠٢، و «الأعلام» ٤/ ١٣٧.

(٣) هما أبو الفرج الأصبهاني - أو الأصفهاني، وكلاهما سائغ - وعماد الدين الأصفهاني الكاتب المشهور الذي كان في زمن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي أو يكون المقصود محمد بن داود الأصفهاني الظاهري المشهور، صاحب كتاب «الزهرة» في الآداب.

(٤) «نحو المعالي» ص ٩٥.

وبعض الكتب أقرأ مقدماتها فقط وقد أمُر بفهارسها، وأتركها بعد ذلك مرجعًا.

وبعض الكتب أعدها مراجع فلا أقرأ منها شيئًا إلا إن احتجت الرجوع إليها.

وبعض الكتب أقرأها مرتين وهي كتب قليلة، وغالبًا ما تكون المرة الأولى زمن الصبا أو أوائل الشباب فأحتاج إلى قراءتها مرة أخرى، أو تكون كتبًا أُعدها للتهذيب والاختصار فأقرؤها مرتين أو ثلاثًا أو أكثر، أما ما سوى ذلك فلا أذكر أبدًا أني قرأت كتابًا ثلاث مرات.

ومن طريقتي الجديدة في القراءة أني إذا وجدت الكتاب مهمًا ولا بد من إظهاره للجمهور فإني إما أن أهذبه وأختصره وأخرجه منشورًا، أو أني - وهذا هو الجديد الذي أعنيه - أخرجه للجمهور في حلقات مرئية في الإنترنت فيما يدعونه «يوتيوب»، وسأتحدث في هذا -إن شاء الله تعالى- في رسالة: «رحلتي في التأليف».

أوقات القراءة:

قد عودت نفسي القراءة في كل زمان ومكان، فأقرأ في أماكن الضجيج وبقاع الهدوء، وفي الخَلَوات والجَلَوات، وداخل البلاد وخارجها، في كل الأوقات من ليل أو نهار، وفي أوقات الفرح والسرور، وأوقات الحزن والضيق والغضب والقلق، لا يمنعني من ذلك مانع - ولله الحمد والمنة - فأكسبني هذا التعود حبًا للقراءة لا يعدله حب لعمل ثقافي أو اجتماعي آخر أبدًا، وأجد فيها

أُنسي وراحتي، بل لا أكتم القراء أني أجد صعوبة جمة في أي عمل ثقافي واجتماعي سوى القراءة وأجبر نفسي إجبارًا عليه.

ما انتهى إليه أمري في القراءة:

إن هذا الوقت الذي نعيش فيه قد بلغ الغاية العظمى من التعقيد في كل صعيد تقريبًا، وأصبحت مشغولاً بأمور كثيرة، ويضاف إلى كل ذلك سفري المتكرر بسبب الوظيفة أو الدعوة، وهذا كله ألقى بظلال كثيفة أصبحت حجابًا مانعًا من كثرة القراءة في الكتب المطولات أو الموجزات، ويضاف إلى الموانع والعوائق ما انفتح على الناس اليوم من وسائل اتصال حديثة لا بد من مجاراتها ولو قليلاً والاطلاع على ما فيها ولو اطلاعًا عابرًا؛ وذلك نحو «التويتر» و«الفيس بوك» و«الواتس أب» وهذا الأخير أصبح يأكل الأوقات أكلاً وذلك لأني أُشركت في مجموعات عديدة تقذف كل يوم بمئات الرسائل، وفي كثير من تلك الرسائل روابط تُفضي بقارئها إلى مقاطع مرئية أو مسموعة أو مكتوبة، وكثير منها مهم ولا بد لمتابع الأحداث القلق على أمته منه، فهذه عدة ساعات كل يوم وليلة تُصرف في هذا الشأن، فإذا أضيف لذلك ما في «الفيس بوك» وهو بحر خضم، وما في «التويتر» وما أدراك ما «التويتر» وأُضيف لكل ذلك ساعات العمل والدعوة والنظر في شئون النفس والأهل، إذا رُوعي كل ذلك فياليت شعْري ماذا بقي من ساعات اليوم والليلة للقراءة؟ مطلق القراءة فدع عنَك مطولاتها فهذه أصبحت من الأماني العظام، لكن مع كل ذلك الذي ذكرته فإني أجد نفسي مسوقًا للقراءة لعدة أسباب، منها:

١- ما أقرؤه لإعداد بحث لهيئة أو مؤتمر.

٢- ما أقرؤه من أبحاث لمناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه أو الإشراف عليها.

٣- ما أقرؤه من بعض الكتب في مكتبتي، وهو قليل.

٤- ما أقرأه من بعض الكتب الجديدة التي أقتنيها.

٥- ما أقرؤه من مجلات إسلامية وثقافية قراءة سريعة أقف فيها على أهم ما في المقروء من موضوعات.

٦- ما أقرؤه من بعض الجرائد المحلية والدولية، وقد أقللت من قراءتها كثيراً في السنوات الثلاث الأخيرة.

هذا هو الذي انتهى إليه أمري في القراءة، وأرى أنه ليقرأ المرء قراءة جيدة في هذا الزمان فإنه يحتاج لقهر نفسه على أمور يكرهها، وللتقليل قدر الإمكان من الشواغل عن القراءة، وذلك كله مفتقر إلى توازن لا بد منه حتى لا ينعزل المرء عن هموم مجتمعه وأمته، وفي الوقت نفسه لا يغرق فيها، والله المستعان.

مكتبتي:

رزقني الله مكتبة ضخمة جليلة وزعتها على غرف ثلاث كبيرة -ولله الحمد والمنة- وهي حصيلة جمع الكتب لمدة تقارب الأربعين سنة، وصرت كلما دخلت المكتبة أفكر في شأني وشأنها، وأني سأغادرها بعد -مدة تطول أو تقصر- ولم أقرأ ولم أطلع على أكثر كتبها، وليس لي وارث إلى الآن يصلح

لوراثتها الوراثة العلمية النافعة، وهذا يورثني من الهموم ما الله -تعالى- به عليم، والله المعين.

ثم إني أجمعت أمري على طريقة أرى أنها مفيدة في علاج شأن المكتبة، ألا وهي تقسيم الكتب كلها إلى ٣ أقسام:

١- قسم أقرؤه -ولا بد، بإذن الله تعالى- وهو قليل.

٢- وقسم هو مراجع لا تقرأ كلها -عادة- كمطولات التفسير والحديث والفقه واللغة، وهو كثير.

٣- وقسم أعددته لما سميته بالجرد، وهو المرور السريع على كل صفحات الكتاب والنظر فيما يصلح منها للاصطفاء والاستفادة فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

وهذا القسم يشمل مطولات كتب التاريخ وبعض كتب اللغة والثقافة، والمجلات الإسلامية والثقافية الكثيرة، وبعض كتب أخرى.

وهذه الطريقة أراحتني كثيراً نفسيًا وأذهبت عني ما كنت أجده في كل مرة أدخل فيها مكتبتي.

أما وراثة المكتبة الوراثة العلمية فهذا علمه عند ربي في كتاب، فلعل الله -تعالى- أن يأتيني من رحم الغيب بمن يرثني في مكتبتي هذه وراثة علمية حسنة، ويُذهب عني غم تصور قدوم الأجل وتبعثُر المكتبة، فهو -سبحانه- جواد كريم.

وإنما قلت ذلك لأني وقفت على مكتبات عديدة لعلماء ومشايخ ومثقفين توفوا فلم يعد أحد من ورثتهم يهتم بها أو يُعنى بها، فأصبحت في حالة يرثى لها، وأُخبرت بأحوال بعض المكتبات وأنها آلت إلى أن توضع في خارج البيت بجوار المزبلة!! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والزائر لمعارض الكتب يجد هنالك قسمًا لبيع الكتب القديمة يتبعثر فيها مكتبات جليلة لكبار العلماء والمشايخ والمثقفين، وتباع بأرخص الأثمان، بعد أن زهد فيها ورثتها وباعوها بثمن بخس.

وهناك كثير جدًا من مكتبات القدماء فيها مخطوطات نفيسة بيعت لأصحاب الحلوى والحبوب ليلفُّوا بأوراق المخطوطات بضاعتهم، وهذا كان كثيرًا ما يحصل قديمًا في قرون الظلام والانحدار: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر/ السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادي. ولهذا كنت أقول لطلابي دائمًا: الحمد لله الذي قيض لنا من الأجانب من سرق مخطوطاتنا لتحيا وتحفظ في بلادهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

●●●

المبحث الثاني:

الكتب التي أفضِّل قراءتها

حُببت إليّ موضوعات محددة أحب قراءتها والرجوع إليها بين الفَيْنة والأخرى، وهي:

١- كتب العلوم الشرعية:

وعلى رأسها علوم القرآن العظيم، فأحب القراءة في كتب إعجاز القرآن، وإعراب القرآن، وأحب أن أقرأ بعض الفصول الجيدة من كتاب «الإتقان في علوم القرآن» للحافظ السيوطي، رحمه الله تعالى[(١)].

وأُحب قراءة بعض كتب التفسير وعلى رأسها الكتاب العظيم «التحرير والتنوير» للإمام الذي لم يُوف حقه من الإنصاف الطاهر بن عاشور التونسي -رحمه الله تعالى[(٢)]- وسأتحدث في شأن الكتاب في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

---

(١) السيوطي هو الإمام جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن محمد. ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩ هـ، ووجَّهه أبوه لطلب العلم منذ نشأته فنبغ وحفظ القرآن قبل أن يتم ثماني سنين، وحفظ عدة متون، وارتحل طلبًا للعلم، وأفتى وعمره اثنتان وعشرون سنة، وله مصنفات كثيرة جدًا، توفي بالقاهرة سنة ٩١١ هـ رحمه الله تعالى. انظر: «حسن المحاضرة» ١/ ٣٣٦ وما بعدها و «شذرات الذهب» ٨/ ٥١ وما بعدها، وانظر في معاركه الأدبية والفكرية الكثيرة مع أهل عصره: «الضوء اللامع» ٤/ ٦٥ - ٧٠، و«البدر الطالع» ١/ ٣٣٢ - ٣٣٤، «شرح مقامات السيوطي»؛ ففيها جملة وافرة من تلك المعارك.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، وُلدَ سنة ١٢٩٦ هـ بتونس، وعين عام ١٩٣٢م شيخًا للإسلام مالكيًا، وهو من أعضاء المجمعين العَربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة متداولة ومقالات كثيرة في المجلات، توفي بتونس سنة ١٣٩٣هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام» ٦/ ١٧٤.

وأُحب القراءة في كتب «الجرح والتعديل» التي يتجلى فيها بوضوح إنصاف سلفنا وفهمهم التام لقضية الموازنة بين مزايا المرء ونقائصه، وهي التي بنوا عليها كل هذا العلم.

وأُحب قراءة بعض الكتب الحديثية وعلى رأسها الصحيح الذي لم يؤلف مثله للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، رحمه الله تعالى[(1)].

٢- كتب الدعوة:

قد قضيت شطرًا من حياتي مُيممًا وجهي لكتب الدعوة مكثرًا من قراءتها، ومن الكتّاب الذين أقرأ لهم وهم عندي في الدرجة الأولى من الدعاة المصنفين الأستاذ سيد قطب[(2)] - رحمه الله تعالى- فهذا الذي لا أعدل به أحدًا خاصة إبداعه في «معالم في الطريق»، و«هذا الدين»، و«المستقبل لهذا الدين» و«في ظلال القرآن»، وسأتحدث في شأن بعض كتبه في المبحث القادم، إن شاء الله تعالى.

وكذلك حُبب إليّ كتب الأستاذ محمد قطب -حفظه الله تعالى[(3)]- خاصة

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، أبو عبدالله البخاري، جبل الحفظ وإمام الدنيا في الحديث، مات سنة ٢٥٦ هـ بقرية من قرى بخارى تدعى خزتنك، وله اثنتان وستون سنة، أخرج له الترمذي والنسائي. انظر المصدر السابق: ص ٤٦٨.

(٢) هو سيد بن قطب بن إبراهيم. مفكر إسلامي مصري. ولد في أسيوط سنة ١٣٢٤هـ. وتخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في بعض المجلات الأدبية، وعين مدرسًا للعربية، ثم تنقل في الوظائف الحكومية. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٣٧٣هـ، ثم سجن فعكف على تأليف صفوة كتبه في السجن، ثم أعدم بعد ذلك سنة ١٣٨٧هـ. انظر: «الأعلام» ٣/ ١٤٧، ١٤٨.

(٣) هو أخ شقيق أصغر للأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى وقد ابتلي بالسجن كعامة الدعاة المصريين الذين عاشوا في مدة العبد الخاسر. ثم خرج وذهب إلى مكة المكرمة مدرسًا في جامعة أم القرى. ثم عاش بين مكة المكرمة واسطنبول. ألَّف كتبًا نفيسة لاقت رواجًا جليلاً ونفع الله بها كثيراً. توفي -رحمه الله تعالى- سنة ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤م.

كتابه «شبهات حول الإسلام» وسأتحدث عنه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

وممن استفدت من كتاباتهم الدعوية فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي - حفظه الله تعالى- والأستاذ فتحي يكن، رحمه الله تعالى[1]، وثلة غيرهم.

٢- كتب اللغة:

أُحب قراءة كتب اللغة خاصة المعاجم -وهي التي يسميها العامة القواميس- وأحبها إليّ كتاب «تاج العروس شرح جواهر القاموس» للزبيدي[2] - رحمه الله تعالى- فقد أبدع في كتابه هذا ما شاء الله له أن يبدع، فكان حقًا المعجم الأول في العربية بلا منازع، فإذا رجعت إليه وجدت متعة وفائدة لا أكاد أجدها في معجم آخر، ولعل لجودة التحقيق وحسن عرض فقَر الكتاب مدخلاً في هذا، فقد طُبع قديمًا طبعة حجرية، ثم طبعته حكومة الكَويت محققًا تحقيقًا رائعًا على يد ثلة من أساتذة العربية الكبار، واستغرق نشره سنوات طويلات.

وأُحب الرجوع إلى معجم ابن فارس المشهور «مقاييس اللغة» لأنه يُفهم القارئ تمامًا معنى الكلمة التي يريد البحث عن معناها، فمثلاً كلمة «إعجاز» إذا رجعت إليها في معجمه ذكر لك أن جذرها هو: «ع ج ز»، وهذا الجذر - أو

---

(١) هو فتحي محمد عناية المشهور بفتحي يكن، لبناني من أصل تركي. ولد سنة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٣م أحد الدعاة المؤسسين للعمل الإسلامي في لبنان، وأسس «الجماعة الإسلامية» على منهج الإخوان المسلمين، ورأس «الجبهة الإسلامية»، وله كثير من الكتب التي تعالج شئون الدعوة والدعاة. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م. انظر: ويكيبيديا على شبكة المعلومات الإنترنت.

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، أبو الفيض الملقب بمرتضى. علامة في اللغة والحديث والرجال والأنساب. من كبار المصنفين. أصله من العراق، ومولده في الهند سنة ١١٤٥ ومنشأه في زبيد باليمن. رحل إلى الحجاز وأقام في مصر؛ حيث اشتهر هنالك، وتوفي فيها بالطاعون، سنة ١٢٠٥، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام» ٧/ ٧٠..

المادة- له في اللغة معنيان: العَجْز بمعنى الضعف، والعَجُز أي مؤخرة الشيء، ثم يضرب لك الأمثال حتى تفهم المعنى تمامًا، وهكذا.

وأُحب الرجوع إلى «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» للنحوي المبدع ابن هشام الأنصاري المصري[1] الذي قال فيه ابن خلدون[2] -رحمهما الله تعالى-:

«كنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم يقال له ابن هشام هو أنحى من سيبويه!!»[3]، وقد ألفه على طريقة فريدة جميلة.

وأُحب الرجوع إلى الكتب التي تُعنى بإعراب القرآن خاصة «البحر المحيط» لأبي حيان[4].

(١) جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالله. ولد سنة ٧٠٨ هـ بمصر، وتفقه للشافعي ثم تحنبل، وأتقن العربية ففاق فيها الأقران بل الشيوخ، وتخرج به جماعة من أهل مصر. انفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدركات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط. توفي سنة ٧٦١ هـ بمصر. انظر: «الدرر الكامنة» ٢ / ٤١٧، ٤١٨. وكتابه هذا مطبوع مشهور متداول.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته وشايات ودسائس ثم عاد إلى تونس، ارتحل إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم عزل وأعيد، توفي فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ، رحمه الله تعالى. وكان فصيحًا، عاقلاً، صادق اللهجة، طامحًا للمراتب العالية، له عدة كتب. انظر: «الأعلام» ٣/ ٣٣٠.

(٣) «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»: ١/ ٥٣٦.

(٤) محمد بن يوسف بن علي الغرناطي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي الجياني. ولد سنة ٦٥٤هـ، وقرأ القرآن إفرادًا وجمعًا، وسمع الكثير ببلاد الأندلس وإفريقية ثم قدم الإسكندرية. كان ثبتًا فيما ينقله، عارفًا باللغة، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما. وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس. وله التصانيف التي سارت في الآفاق واشتهرت في حياته. أضر قبل موته بقليل. وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الدرر الكامنة» ٥/ ٧٠ - ٧٦.

٤- كتب الأدب:

القراءة في كتب الأدب لا غنى عنها لكل من أراد التعرف على طرائق العرب في الكلام، ولكل من أراد لألفاظه رصانةً، ولأسلوبه جزالة، ولمعانيه جودةً، فهذه الكتب مفيدة جدًا في هذا الباب، وكلما كان مصنف الكتاب أبعد منا زمانًا كان أكثر جودة في طرائق إيراد أخبار كتابه، وأحسن أسلوبًا، وأجمل ألفاظًا وأرقّ معانيَ، وهذا حكم غالب قد يُستثنى منه بعض المصنفين، وكان الأدباء يوصون بالقراءة للجاحظ وابن العميد[١] وعبد الحميد الكاتب[٢] وأضرابهم ممن ملك ناصية الكلام، وتصرف فيه أنواعًا من التصرفات مدهشة، وأبان عن مقدرة وجودة وقوة لا مزيد عليها.

---

(١) الوزير الكبير أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد الكاتب، وزير الملك ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي. كان عجبًا في الترسل والإنشاء والبلاغة، يضرب به المثل، ويقال له: الجاحظ الثاني. وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. وكان مع سعة فنونه لا يدري ما الشرع، وكان متفلسفًا، متهمًا بمذهب الأوائل. وكان ابن عباد يصحبه ويلزمه، ومن ثَم لقب بالصاحب. مات سنة ستين وثلاثمائة. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١/ ١٣٨.
وقال الزركلي: له (مجموع رسائل - خ) في مجلد ضخم، وشعر رقيق. قال ابن الأثير: كان أبو الفضل من محاسن الدنيا، اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك والكتابة التي أتى فيها بكل بديع، مع حسن خلق ولين عشرة وشجاعة تامة ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة البويهي ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء. وكانت وزارته أربعًا وعشرين سنة، وعاش نيفًا وستين. ومات بهمذان. وللسيد خليل مردم (ابن العميد - ط) رسالة. انظر: «الأعلام»٦/ ٩٨.

(٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري، بالولاء، المعروف بالكاتب: عالم بالأدب، من أئمة الكتاب، يضرب به المثل في البلاغة، أصله من قيسارية. سكن الشام. له رسائل تقع في حدود ألف ورقة، طبع بعضها. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب. قُتل بمصر مع الخليفة مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ. انظر: «الأعلام» للزركلي ٣/ ٩٨٩.

وأحب كتب الأدب إليّ كتب أبي حيان التوحيديّ، فهو أديب موهوب، له طريقة متفردة لا يشابهه فيها أحد، وتشويق لا يقاربه فيه - عندي- أحد، ولكلامه سلاسة وجزالة ورصانة قلَّما تجتمع لأحد، وسأتحدث في المبحث المقبل في بعض كتبه، إن شاء الله تعالى.

وأُحب قراءة كتب الشيخ علي الطنطاوي[1] -رحمه الله تعالى- وقد قرأت أكثرها، فهو يجمع إلى حسن التأليف جمال العبارة ونصاعتها، وسلاستها وسهولتها، وهو أديب من الطراز الأول، وما امتاز به رحمه الله - تعالى- عن أقرانه هو جمعه بين الوعظ والتربية والتهذيب وبين الأدب في سياق واحد، وهذه لا أعرفها لأحد ما عدا الأستاذ المتفرد سيد قطب، لكن طريقة الأستاذ الطنطاوي أقرب إلى عامة الناس من طريقة الأستاذ سيد، وملامسته لمشكلات الناس اليومية أكثر من ملامسة الأستاذ سيد، والدعابة لا تفارقه، رحمة الله تعالى عليهما.

وأُحب القراءة للطنطاوي إذا أراد معالجة المشكلات الاجتماعية، فحدث ولا حرج آنذاك عن الإمتاع والجودة والقوة والحكايات الحقيقية - غالبًا - التي لا تكاد تنتهي.

وأُحب كتبه إليّ مطلقًا «صور وخواطر» وأشهد أنه قد أبدع في تصنيفه إبداعًا قَلّ مثيله في كتب الأدب عبر العصور، وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء،

---

(١) أديب العربية المعروف. سوري من أصل مصري من بلدة طنطا. استوطن مكة فسكنها طويلاً. كانت له رحلات وجولات في نصرة فلسطين والقضية الإسلامية. له العديد من المصنفات الدالة على علو كعبه في باب الأدب. وله مئات الأحاديث في وسائل الإعلام، وله كذلك مئات المقالات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٠هـ. انظر: «ذيل الأعلام» ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

وقد كنت سألته في إحدى المرات التي حظيت فيها بالجلوس إليه عن شخصية الأعرابي «صُلْبي» الذي أورده في كتابه «قصص وخواطر» في فصلي «أعرابي في سينما» و«أعرابي في حَمّام» فأخبرني أنها من محض الخيال لكن صلبي شخصية حقيقية وأنه أحد مَن قابله من البدو في تبوك ودعاه إلى دمشق فأبى عليه، فتخيل الشيخ أنه دخل دمشق وبنى على ذلك أحداث ذينك الفصلين من كتابه فجاءا أمتع ما في الكتاب وأكثره إبداعًا.

ولا يُنسى فصل في كتابه ممتع بعنوان «شهيد العيد».

- وكتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر حال وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» للمقّري[(١)]، وسأتحدث في شأنه في الفصل القادم، إن شاء الله تعالى.

- هذا وقد وقفت على كلام لأحد أدباء العصر الوسيط وهو القاضي الفاضل[(٢)] - رحمه الله تعالى - فلم أجد أجمل ولا أحلى منه، وسأورده في الرسالة الثانية القادمة بعنوان «رحلتي في التأليف» إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد المقّري، أبوالعباس التلمساني المؤرخ، الأديب الحافظ. ولد في تلمسان سنة ٩٨٦هـ، ونشأ بها، ثم انتقل إلى فاس فكان خطيبها وقاضيها، ثم انتقل إلى القاهرة، سنة ١٠٢٧هـ، ودخل الشام والحجاز. والمَقّري نسبة إلى مَقّرة قرية من قرى تلمسان. له عدة كتب جليلة. توفي - رحمه الله تعالى- بمصر سنة ١٠٤١هـ. انظر «الأعلام»: ١/ ٢٣٧.

(٢) هو عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلاني ثم المصري، نزح من فلسطين إلى مصر في زمن الدولة العبيدية، وخدم في دواوين الإنشاء فيها، ثم التحق بصلاح الدين لما كان وزيراً بمصر، وكان له أثر كبير في إنجاح جهاده، حتى أنه قال: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل»، وما زال معه حتى توفي صلاح الدين. وكان صاحب طريقة في الكتابة لا مثيل لها. توفي سنة ٥٩٦هـ، رحمه الله تعالى. وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٨٤.

٥- كتب التاريخ:

وهذا هو العلم الأحب إلى قلبي، والأثير عندي، والأقرب إليّ؛ وذلك لما فيه من فوائد كثيرة، وأكثر قراءاتي إنما هي في كتب هذا العلم، وعلى رأسها كتب التراجم - وهي الكتب التي تسرد سير حياة الأشخاص- القديمة منها والحديثة، وإن كانت السير القديمة أحب إليّ لجلالها وروعتها.

وأعظم هذه الكتب - عندي- هو «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، رحمه الله تعالى[(١)].

وكتاب «رياض النفوس» وهو في علماء ومشايخ تونس لأبي عبدالله المالكي، رحمه الله تعالى[(٢)].

وكتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي[(٣)]، رحمه الله تعالى.

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره. ولد سنة ٦٧٣هـ، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨هـ بعد أن أضر رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/ ١٠٠-١٢٣.

(٢) أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله محمد بن عبدالله المالكي. ولد في أوائل القرن الخامس الهجري، وأخذ عن علماء عصره. أقام مدة في صقلية ودرّس بها، وأقام في القيروان، وشهد تخريبها على أيدي الأعراب. توفي في حدود سنة ٤٧٤هـ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٤/ ١٢١، ١٢٢.

(٣) هو خليل بن أيبك بن عبدالله، صلاح الدين الصفدي، أديب بارع، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد بفلسطين سنة ٦٩٦هـ وإليها نسبته، وتعلم في دمشق، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها عام ٧٦٤هـ وكتب الخط الجديد، وقال الشعر الحسن، وكان محببًا إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة، له زهاء مائتي كتاب في التراجم والتاريخ واللغة والأدب وغيرها. رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام» للزركلي: ٢/ ٣١٥. وانظر: «الأخبار العليات من الوافي بالوفيات»: ١/ ١٠.

وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» للإمام أبي شامة المقدسي، رحمه الله تعالى[1].

وسأتحدث في شأن بعض هذه الكتب في الرسالة القادمة الثانية بعنوان «رحلتي في التأليف» إن شاء الله تعالى.

ثم إني أحب قراءة كتب الرحلات، وأمتعها - عندي- الرحلات إلى الحجاز، قديمًا وحديثًا، ومن أحبها إليّ كتاب رحلة ابن جبير الأندلسي[2] فقد أوتي لسانًا جاحظيًا، وعبارة حيانيةً توحيدية، وهو ممن يجيد الوصف إلى الغاية.

ثم الرحلات إلى أوروبا في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

وأُحب قراءة كتب المذكرات أو الذكريات، وهي طراز جديد من التصنيف بدأ في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي - فيما أعلم والله أعلم[3]- ومن أحبها إليّ مذكرات الشيخ علي الطنطاوي للذيذ حديثه

---

(١) الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المقرئ النحوي. الملقب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر. له مصنفات عديدة مفيدة، وكان متواضعًا، محبًا للعزلة والانفراد. قتلته الباطنية سنة ٦٦٥هـ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/ ١١٣-١١٦.

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الاندلسيّ الشاطبيّ البَلَنسيّ. رحالة أديب. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠هـ ونزل شاطبة. برع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وأحب الترحال والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨-٥٨١هـ وهي التي ألف فيها رحلته. مات بالإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤ هـ رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٥/ ٣٢٠.

(٣) هناك كتب ظهرت في قرون الإسلام الوسطى يصح إلى حد كبير أن يطلق عليها أنها كتب ذكريات على نحو ما كتبه الأمير أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار»، وكتاب الإمام السيوطي: «التحدث بنعمة الله»، وكتاب الإمام ابن خلدون في وقائع حياته.

وغريب أخباره، وجودة ما يورده، فقد عاش في أصعب المدد التي عاشتها الأمة الإسلامية في القرن الفائت، وفي ذكرياته من الأخبار المهمة الشيء الكثير.

ومن كتب الذكريات التي تركت في نفسي انطباعًا لا ينسى كتابان:

كتاب «مذكرات الدعوة والداعية» للأستاذ الإمام حسن البنا - رحمه الله تعالى- ومَن قرأ الكتاب عرف لماذا انتشرت دعوة الإمام وانداحت في الأرض.

وكتاب «قصة أيامي» للشيخ الجليل عبد الحميد كشك(١) - رحمه الله تعالى-

---

(١) عبد الحميد بن عبد العزيز كشك. ولد في شبراخيت بمحافظة البحيرة سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م، وحفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره، ثم التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية، وفي السنة الثانية ثانوي حصل على تقدير ١٠٠٪ وكذلك في الشهادة الثانوية الأزهرية وكان ترتيبه الأول على الجمهورية، ثم التحق بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وكان الأول على الكلية طوال سنوات الدراسة، وكان أثناء الدراسة الجامعية يقوم مقام الأساتذة بشرح المواد الدراسية في محاضرات عامة للطلاب بتكليف من أساتذته الذين كان الكثير منهم يعرض مادته العلمية عليه قبل شرحها للطلاب، خاصة علوم النحو والصرف.

عُيِّن عبد الحميد كشك معيدًا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة عام ١٩٥٧م، ولكنه لم يقم إلا بإعطاء محاضرة واحدة للطلاب بعدها رغب عن مهنة التدريس في الجامعة.

وفي عام ١٩٦٢م تولى الإمامة والخطابة بمسجد عين الحياة، بشارع مصر والسودان بمنطقة حدائق القبة بالقاهرة. ذلك المسجد الذي ظل يخطب فيه قرابة عشرين عامًا.

اعتقل عام ١٩٦٥م وظل بالمعتقل لمدة عامين ونصف العام، تنقل خلالها بين معتقلات طرة وأبو زعبل والقلعة والسجن الحربي. تعرض للتعذيب رغم أنه كان كفيفًا لا يبصر منذ صغره، ورغم ذلك احتفظ بوظيفته إمامًا لمسجد عين الحياة.

في عام ١٩٧٢م بدأ يكثف خطبه وكان يحضر الصلاة معه حشود هائلة من المصلين ومنذ عام ١٩٧٦م بدأ الاصطدام بالسلطة وخاصة بعد معاهدة كامب ديفيد حيث اتهم الحكومة بالخيانة للإسلام وأخذ يستعرض صور الفساد في مصر من الناحية الاجتماعية والفنية والحياة العامة. وقد ألقى القبض عليه في عام ١٩٨١م مع عدد من المعارضين السياسيين ضمن قرارات سبتمبر الشهيرة للرئيس المصري محمد أنور السادات، بعد هجوم السادات عليه في خطاب ٥ سبتمبر ١٩٨١م. وقد أفرج عنه عام =

ففيها من تفاصيل معاناته في الحياة وفي السجن ما يجدر بكل مبتلى أن يقرأها حتى يعلم أنه في عافية مهما كانت بليته، ومن قسا قلبه وجفت عيناه فلم يبك منذ مدة طويلة فليقرأ ذاك الكتاب الجليل فإنه لن يملك عينيه وقلبه.

٦- الكتب الثقافية:

قرأت بعض الكتب الثقافية التي تُعنى بالتعريف بالثقافتين الإسلامية والإنسانية، وأرى -والله أعلم- أن قراءة الكتب التي تثقف المرء وتعرِّفه بأحوال أمته وأحوال الأمم من حوله هو من مكملات شخصية طالب العلم والداعية، ومن تلك الكتب التي قرأتها كلها أو بعضها:

- «لمحات في الثقافة الإسلامية».
- «معالم في الثقافة الإسلامية» وكلاهما للأستاذ عمر عودة الخطيب -حفظه الله تعالى- وكان الكتابان مقررين دراسيين لما كنت أدرس بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود.
- «ثقافة الداعية» للشيخ يوسف القرضاوي، حفظه الله تعالى.
- «حاضر العالم الإسلامي» للكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد بتعليقات أمير البيان شكيب أرسلان(١). الضافية الوافية التي ضاعفت أصل الكتاب عشرات الأضعاف!!.

= ١٩٨٢م ولم يعد إلى مسجده الذي مُنع منه كما منع من الخطابة أو إلقاء الدروس. لقي كشك خلال هذه الاعتقالات عذابًا رهيبًا ترك آثاره على كل جسده رغم إعاقته.

توفي -رحمه الله تعالى- ساجداً سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. انظر «ويكيبيديا» على شبكة معلومات الإنترنت.

(١) شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. ولد في الشويفات بلبنان=

- «لعبة الأمم» لمايلز كوبلاند عميل المخابرات الأمريكية.

- «حاضر العالم الإسلامي» للأستاذ علي جريشة، رحمه الله تعالى.

- «تاريخ التشريع» للشيخ مناع القطان، رحمه الله تعالى.

- «شبهات حول الإسلام» للأستاذ محمد قطب، رحمه الله تعالى.

- «نحو ثقافة إسلامية أصيلة» للدكتور عمر الأشقر رحمه الله.

وغير ذلك من الكتب الثقافية الكثيرة التي قرأتها.

٧- المجلات الدعوية والثقافية:

أقرأ مجلة «المجتمع» الكويتية لما تورده من أحداث هي وراء ما في السطور المقروءة في كثير من الأحيان، ولحسن تغطيتها لمساحات كثيرة من العالم، وإن كنت أعتب عليهم في شيء فهو في رخص ثمنها الذي هو خمسة ريالات، فأقل سعر لها هو الضعف، وهو سعر مناسب لبلادنا والخليج - على الأقل- أما أن تباع بهذا السعر الزهيد فهو بخس لحقها، ومجلات الفسق والفجور تباع بثمن عال وتجد من يشتريها أفلا تجد هذه المجلة من يشتريها لو ضوعف السعر(١)؟!

= سنة ١٢٨٦هـ. كان عالمًا بالأدب والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. انتخب نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني. وسكن دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، وانتقل إلى جنيف بسويسرا وسكن فيها ٢٥ عامًا ثم عاد إلى بيروت وتوفي بها سنة ١٣٦٦هـ رحمه الله تعالى. له مصنفات كثيرة ورسائل خاصة عددها يقدر بعشرات الآلاف وهو كان من أشد المتحمسين للدولة العثمانية ثم بعد ذلك للقضايا = العربية. انظر: «الأعلام»: ٣/ ١٧٣- ١٧٥.

(١) كتبت هذا قديمًا، ثم جاء الخبر أنها صارت مجلة شهرية!! وذلك لقلة الأموال، وضوعف سعرها إلى عشرة ريالات، فلو ضاعفوا سعرها وأبقوا أسبوعيتها لكان خيرًا لنا ولهم، والله المستعان.

وأقرأ مجلة «البيان» اللندنية، وتمتاز بجودة أبحاثها ودراساتها العميقة.

وكنت -قديمًا- مواظبًا على قراءة مجلة «الدعوة» و«الاعتصام»، و«المختار الإسلامي» وقد توقفت المجلتان الأوليان، وبقيت الثالثة، وفي كل تلك المجلات أخبار وأبحاث جليلة، وأجرأ تلك المجلات هي «المختار الإسلامي».

وأقرأ مجلة «الأزهر»، وإن كانت قد ضعفت كثيراً في هذه المدة مقارنة بما كانت عليه في القرن الماضي، وتمتاز بكتابها الذي توزعه كل شهر ملحقًا بالمجلة، وهو كتاب نافع مختار بعناية وغالبًا ما يكون من تأليف كبار المشايخ الأزهريين قديمًا.

وأقرأ مجلة «الفيصل» أحيانًا، وقد ضعفت أيضًا.

وأقرأ مجلة «المنهل» أحيانًا على ضعف فيها.

وأقرأ «المجلة العربية» أحيانًا قليلة، وتمتاز بكتابها الذي توزعه كل عدد ملحقًا بالمجلة، وبعض هذه الكتب نافع.

وكنت أقرأ مجلة «اقرأ» و«اليمامة» قديمًا لكن لم أعد إليهما منذ زمن طويل وأجد فيهما تغريبًا ونشراً لصور النساء الكاشفات على وجه لم يكن من قبل، فلذلك زهدت فيهما.

وأحب قراءة «مجلة العرب» للأستاذ حمد الجاسر[1]، رحمه الله تعالى، وقد توقف صدورها منذ زمن طويل.

( ) حمد بن محمد بن جابر الجاسر. عالم وباحث وإعلامي سعودي مهتم باللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والأنساب. كان عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة العربية الأردني في عمّان، والمجمع العراقي في بغداد، والمجمع العلمي في الهند. =

وأقرأ مجلة «البعث الإسلامي» التي تصدر عن «ندوة العلماء» في مدينة لكنهو بالهند، وفي هذه المجلة من أخبار الهند وأحوالها ما لا تجده في مكان آخر.

وأقرأ مجلات سوى ذلك معظمها قديم قد توقف صدورها لكني تتبعت كثيراً من الأعداد القديمة واشتريتها فهي في مكتبتي، وعلى رأسها مجلة «الرسالة» العريقة وعندي كل أعدادها.

ومجلة «المنار» وعندي كل أعدادها.

وكثير من أعداد مجلة «لواء الإسلام» و«الإصلاح» و«منبر الإسلام»، و«الفتح» و«حضارة الإسلام»، و«الثقافة» وما سوى ذلك.

وتلك المجلات مصدر ثري جداً لأبحاث جليلة وأخبار مهمة من القرن الفائت.

وعندي أعداد كثيرة من المجلات ذات النفس العروبي القومي بشقيه البعثي والناصري الذي قبر للأبد، ولله الحمد والمنة.

وأقرأ مجلات المجامع اللغوية مثل مجلة المجمع العلمي الدمشقي ومجلة المجمع المصري والعراقي.

= عمل في قطاع التعليم، والقضاء، والصحافة والنشر، وأنشأ مؤسسة اليمامة الصحفية التي أصدرت مجلة اليمامة، أول مجلة تصدر في مدينة الرياض، وذلك عام ١٩٥٢م، وتبعتها جريدة الرياض في عام ١٩٧٦م وأخيراً مجلة العرب، وهي مجلة فصلية متخصصة في تاريخ وآداب شبه الجزيرة العربية. وأنشأ حمد الجاسر أول دار للطباعة في نجد في عام ١٩٥٥م.
له عدة كتب وتحقيقات. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. انظر ترجمته في كتاب «ذيل الأعلام»: ٣/ ٥٩، ٦٠.

٨- الجرائد:

لا يوجد في بلادنا جرائد إسلامية يومية ولا أسبوعية - فيما أعلم - فأقرأ من الجرايد اليومية بعضها كلما تيسر ذلك، وقد كنت قديمًا أقتني واحدة على الأقل كل يوم، لكني اليوم زهدت فيها كلها جملة فلم أعد أطلع عليها إلا في الطائرة.

وكذلك أقرأ غيرها من الجرائد، فأقرأ أحيانًا جريدة «الشرق الأوسط» و«الحياة» اللندنيتين لما يوردانه من أخبار لا ترد في جرائد بلادي عادةً على ما في الجريدتين من خبث ظاهر وفساد - خاصة جريدة «الشرق الأوسط» - ومواقف القائمين على الجريدتين من الإسلاميين غير جيدة في الجملة.

وأقرأ - أحيانًا - الجرائد المصرية، ولا يعجبني فيها تماديها في إيراد دقائق أخبار مصر وإهمالها لكثير من أخبار غيرها من البلاد العربية والإسلامية، وضعف محتوى أكثرها، والمبالغة الظاهرة في أكثر جرائد المعارضة.

وأقرأ أحيانًا قليلة جرائد الخليج خاصة «أخبار الخليج» و«الاتحاد» الإماراتيتين، وجريدة «القبس» و«الوطن» الكويتيتين، هذا إذا زرت ذينك البلدين.

وأقرأ بعض الجرائد السودانية واليمنية والمغربية والجزائرية، إذا كنت في تلك البلاد.

وأرى - والله أعلم - أنه لا بد من إنشاء جريدة إسلامية يومية قوية تستطيع أن تنافس الجرائد القوية بل تفوقها، وهذا ممكن إذا اجتمعت الجهود، خاصة في مصر بعد تحررها من الذل والطغيان والقمع(١).

---

(١) أرجو أن تتحرر مرة أخرى فقد كتبت هذا قديمًا قبل الانقلاب العسكري المشئوم.

هذا وقد رأيت أخيراً جريدة يومية لحزب الحرية والعدالة الإسلامي، وجريدة لحزب النور[1]، وهي بداية طيبة، لكن لا أراهما توزعان في بلادي، ولعل القائمين عليهما يجتهدون في التوزيع الخارجي.

القراءة باللغة الإنجليزية:

قد آتاني الله – تعالى– بفضله قدرة على القراءة باللغة الإنجليزية، وقد قرأت موضوعات كثيرة في كتب ومقالات بتلك اللغة، لكني لا أحبذ تلك القراءة ولا أداوم عليها لسببين:

الأول: الحاجز النفسي الذي يصدني عن القراءة بها، فأنا أحب العربية وأتلذذ بالقراءة بها، وإذا قرأت بغيرها فكأنما على صدري حجر ثقيل يمنعني من الاسترسال في القراءة أو الاستمتاع بها.

الآخر: البطء الذي يلازمني في هذه القراءة؛ إذ إن سرعتي في القراءة بالعربية يقابلها بطء نسبي في القراءة بغيرها، وهذا البطء يسبب لي ضياعًا في أوقاتي لا أستطيع تحمله ولا أريد.

ولذلك كله فإني قد عزفت نفسي عن القراءة بهذه اللغة، إلا في مواطن لا بد منها، وموضوعات لا يمكن تجاوزها فأُكره نفسي على القراءة لأهمية ذلك، ومن ذلك القراءة للتدريب الوظيفي؛ إذ كتب علم الطيران دونت باللغة الإنجليزية.

---

(١) قد كتبت هذا قديمًا قبل الضلال البعيد والتلون الذي لابس حزب النور حتى صار هو الأصل في منهجه.

ومن ذلك بعض الموضوعات والأبحاث التي أرى أنه لا بد من قراءتها على أن تكون موجزة فلا أقرأ المطولات.

وأطلع على مجلة ثقافية مهمة وهي الـ« National geography» وهي مجلة تُعنى بشأن المخلوقات والجغرافيا وشيء من التاريخ، وهي نافعة خاصة أعدادها القديمة وما فيها من خرائط وصور بلغت الغاية في الجودة.

●●●

المبحث الثالث:

الكتب التي تركت آثاراً في نفسي

قرأت كثيراً من الكتب لكن بعضها هو الذي ترك في نفسي أثراً لا يُنسى وانطباعاً لا يزول -إن شاء الله تعالى- وهذه الكتب على قسمين:

القسم الأول: كتب أثرت فيّ ورأيت أن أخرجها للناس في ثوب جديد.

والقسم الآخر: كتب أثرت فيّ لكني لم أُعمل فيها قلمي تهذيباً أو اختصاراً أو اختياراً.

أما كتب القسم الأول: فقد تحدثت في شأنها باستفاضة في الرسالة التالية لهذا الرسالة وهي «رحلتي في التأليف» لكني أسردها هاهنا سرداً فقط وهي:

١- «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي.

٢- «الوافي بالوفيات» للصفدي.

٣- «الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى» لخالد الناصري.

٤- «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» للحافظ ابن حجر.

٥- «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للحافظ السخاوي.

٦- «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغَزّي.

٧- «خلاصة الأثر في أهل القرن الحادي عشر» لفضل الله المحبي.

٨- «حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر» للبيطار.

٩- «البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع» للشوكاني.

١٠- «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» لعبد الحي الندوي.

١١- «نشر المثاني في أعيان القرن الحادي عشر والثاني» لمحمد بن الطيب القادري.

وهذه الكتب من الرابع إلى الحادي عشر أودعتها في كتابي الكبير: «المختار المصون من أعلام القرون».

١٢- «رياض النفوس في زهاد القيروان وتونس وإفريقية» لأبي عبدالله المالكي.

١٣- «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» للجبرتي.

١٤- «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي.

١٥- «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي.

١٦- «رحلة ابن جبير» الأندلسي.

١٧- رحلة الورثيلاني.

١٨- رحلة الأستاذ رشيد رضا.

١٩- رحلة الأستاذ شكيب أرسلان المسماة «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف».

٢٠- رحلة ريتشارد بيرتون إلى الحج.

٢١- رحلة الشيخ علي الطنطاوي.

٢٢- رحلة الدكتور محمد حسين هيكل «في منزل الوحي».

وهذه الكتب من الخامس عشر إلى الثاني والعشرين أودعتها في كتابي الكبير: «الرحلات الحجازية إلى مكة المكرمة والمدينة النبوية».

وسآتي على ذكر شيء من هذه الكتب وتراجم مصنفيها في الرسالة الثانية من هذه السلسلة بعنوان «رحلتي في التأليف».

القسم الآخر: الكتب التي أثرت فيّ لكني لم أُخرجها للناس في حلة أخرى:

هناك كتب أثرت فيّ تأثيرات متنوعة؛ فمن تأثير بالغ إلى تأثير متوسط، ولا ريب أن التأثر بالكتب المقروءة يختلف باختلاف الشخص وعواطفه وثقافته ومدى تمسكه بالدين والأخلاق ونضجه، لكني سأورد هاهنا أهم الكتب التي تأثرت بها بغض النظر عن زمن التأثر أو قوته، فمن ذلك:

١ - «جنة الرضى فيما قدره الله تعالى وقضى» لابن أبي عاصم الأندلسي[1]:

وهو كتاب جليل، فيه عشرات القصص والأخبار التي تورث النفس رضى بالأقدار، وخضوعاً لإرادة الواحد القهار، والتسليم بالقضاء، وعدم الاعتراض على خالق الأرض والسماء، ومؤلفه أندلسي ففي الكتاب إذن مِسْحَةُ جمال، وروعة وجلال، فكم من دموع تذرف لقراءته، وكم من نفوس تَخشع لقصصه وأخباره، وهو كتاب كبير في ثلاثة أجزاء، محقق تحقيقاً جيداً - فيما أذكر - وأهل البلاء خصوصاً حقيقون بقراءة الكتاب لما يورثهم من رضا وتسليم بقضاء الله تعالى وقدره.

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي، أبو يحيى. قاض وزير، من بلغاء الكتاب. ولي القضاء بغرناطة سنة ٨٣٨هـ. له شعر ونثر وتصانيف عديدة، وكان بليغاً متقدماً في الفنون والعلوم مع الحفظ والتحقيق. لحقته محنة فقتل سنة ٨٥٧ هـ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام» ٧/ ٤٨.

٢- كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر حال وزيرها لسان الدين ابن الخطيب»[١] للمقّري:

ومؤلفه أندلسي ذو أسلوب سهل جذاب، وألفاظه جمعت بين الجمال والجلال وبين الجزالة والرصانة، وأما ما أثر فيّ حقًا هو ما أورده المصنف في المجلد السادس من أخبار سقوط المدن الأندلسية، ووقوعها تحت راية الصليبية، وتوقف الصلاة والأذان، ورفع النواقيس والصلبان، واستيلاء الكفر على معاقل الإيمان، فتكاد الروح تزهق من ذكر تفاصيل تلك الحملات، والعين من سيلان دموعها لا تكاد تبصر ما في الورقة من كلمات، وأما الأشعار المرققات، والقصائد المفجعات، والأبيات التي هي على القلوب مستوليات فحدِّث عن البحر ولا حرج.

لكن ما يخفف على النفس ثقل وقع القراءة وشدة وطأة الأحداث هو إدراك أن ما جرى هو بسبب تقصير القوم، وابتعادهم عن دينهم، وإهمالهم كتابَ ربهم سبحانه وسنة نبيهم ﷺ وغفلتهم عن السنن، وعدم اعتبارهم واتعاظهم بأحداث الزمن، والله تعالى لا يظلم أحدًا، ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: ٣٠] وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولعلي أعود عليه بالتهذيب والاختصار لما فيه من جليل الأخبار، وجميل الأشعار، وما بث

(١) محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني، قرطبي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبدالله، لسان الدين ابن الخطيب. ولد سنة ٧١٣ هـ بـ«لوشة»، وقرأ القرآن والقراءات والعربية، وتأدب، وأخذ المنطق والحساب والطب وبرز فيه، وتولع بالشعر ونبغ فيه وله قصائد كثيرة جدًا، ومصنفات كثيرة، وترسّل ففاق أقرانه، واستوزره السلطان مرتين، وكان يلقب بذي الوزارتين: السيف والقلم. سعى بعض حساده فيه فقتل في محنة جرت عليه سنة ٧٧٦هـ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٨٨-٩٣، و«الأعلام»: ٦/ ٢٣٥.

المصنف في جوانبه من أخبار الأدب وأدب الأخبار، وليس فيه عيب إلا أنه ضخم كبير، وما هو بعيب لكن أهل العصر تقصر عزائمهم عن مثله، وتكِلّ هممهم عن استيعابه قراءةً وحسن تدبر واعتبار.

٣- «في ظلال القرآن» للشهيد بإذن الله الأستاذ سيد قطب:

لا يعادل أثر هذا الكتاب في قلبي وعقلي أي كتاب آخر؛ وذلك لأن الرجل قد وُفق في ربط أحداث الزمان وأحوال المجتمع ومؤامرات الأعداء بمدلول آيات القرآن على وجه لم يكن لغيره ولا أراه يكون، والله أعلم، وهو أديب بارع أفرغ أدبه في قوالب من التفسير سماها ظلالاً، وأفلح إلى حد بعيد في النجاة من الشطط والشطح، وإذا أراد واحد من الناس البرهان على جودة الكتاب فأوصيه بقراءة المقدمة ومقدمة سورة الأنعام، وتفسير آيات القبلة في سورة البقرة، وأذكر أنه قد زارني في بيتي فضيلة الأستاذ العالم القدوة -أحسبه كذلك- شيخي الشيخ عبدالستار فتح الله سعيد، متعنا الله بحياته وعلمه[١]، وكان ذلك في أحد الشعابين - وفي شعبان تغيرت القبلة - فقلت له: غداً الجمعة فبماذا أخطب؟

فقال لي: اخطب في تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

فقلت له: وهل هذا موضوع صالح للعوام؟

فضحك وقال لي: اقرأه في الظلال.

---

(١) هو أستاذ علوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى سابقًا، وهو ممن عُذب وسجن طويلاً في زمن العبد الخاسر، وهو رجل صالح ذو كرامات أخبرني ببعضها، أحسبه كذلك والله تعالى حسيبه، وله نظرات موفقة، وهو ذو هيبة جليلة، ووسامة ظاهرة، وله عدة مصنفات، وهو الآن في الثامنة والثمانين من عمره المبارك ويسكن القاهرة المحروسة.

فلما قرأته هنالك لم أتمالك دموعي، وعجبت جداً من حسن إيراده للموضوع وربطه لما يجري في زماننا هذا بالآيات، وخلاصة حديثه - وما أصعب تلخيصه- أنه قال: إذا كان الله - تعالى- لم يرض لنا استمرار بيت المقدس قبلة، وهو قبلة شرعية توجه إليها المسلمون زمنًا طويلاً؛ وذلك لأنه قبلة أهل الكتاب وقد نُهينا عن التشبه بأهل الكتاب فيما اختصوا به، فأراد الله تعالى لنا التوجه إلى قبلة مستقلة خاصة بنا، أفيرضى منا -سبحانه وتعالى- أن نتبع أهل الكتاب في شريعتهم وهيآتهم وطرائق حياتهم التي لها صلة بالسلوك والخلق والتصورات؟ وأخذ يُفيض في هذا المعنى ويبدئ ويعيد حتى استولى على قلبي بحسن كلامه رحمه الله تعالى.

والرجل قد ظُلم كثيراً واتُهم باتهامات عديدة، وتُعدي عليه كثيراً، ولا أجد له خيراً من بيت أبي العتاهية شاعر الزهد المشهور:

إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

والرجل أديب حسن الأدب جميل العبارة، هداه الله - تعالى - وشرح صدره، فأقبل على كتاب الله - سبحانه - تدبراً وتفهمًا حتى أخرج هذا الكتاب الفاخر، الذي هو دُرّة جليلة بين الكتب التي تدبر مؤلفوها كتاب الله سبحانه.

وقد أخبرني شيخي الشيخ عبدالستار فتح الله سعيد برؤيا رآها الأستاذ سيد نفسه وقصها عليه لما كانا في سجن العبد الخاسر «عبدالناصر»، فقد قال لي شيخي إن الأستاذ سيداً أخبره أنه رأى في المنام بعض الأوراق التي كان يكتب فيها ظلاله قد أُودعت في دُرج مكتبه في بيته في حلوان، فما لبث الدرج أن امتلأ عسلاً حتى فاض إلى أرض الغرفة، ثم ما لبثت الغرفة أن امتلأت عسلاً

حتى فاضت إلى الشقة، ثم امتلأت الشقة عسلاً حتى فاض إلى سلم العمارة، ثم سال العسل إلى الشارع ثم إلى الشوارع المجاورة، ثم جاء ذباب فنقل العسل إلى الآفاق، ثم قال لي شيخي:

أتدري يا محمد ما هذا الذباب الذي نقل العسل؟ إنه دور النشر اللبنانية الشيوعية واليسارية التي نشرت الظلال نكاية في العبد الخاسر.

فهذه رؤيا باهرة جليلة، والكتاب هو العسل المصفى والشهد الصافي، رحم الله - تعالى - مصنفه.

وأنا أعجب ممن لم تعجبه بعض العبارات، أو توجس خيفة من بعض التعبيرات التي لا تتعدى بضعة أسطر كيف طاوعه قلبه أن يكره سائر الكتاب، ويفرط في العناية بجلال تلك الفصول والأبواب، لكن الإنصاف في الناس عزيز، وإهدار جهود العظماء سمة أهل العصر إلا من رحم الله - تعالى- وقليلٌ ما هم.

وأما الأستاذ فهو في غنى عن هذه المدافعات، وما تجره من المهاترات، فأحسبه عند رب كريم قبل شهادته، ورضي عمله، وقد زكاه من لا يحصون كثرة، وقرأ كتابه ملايين لا يعلمهم إلا الله تعالى، واستفاد من قواعده وضوابطه عدد يندّ عن الحصر، فما ضره لو تكلم فيه من لم يعرف قدره، وهو من جملة البشر يصيب ويخطئ، وأزعم أن صوابه أكثر بكثير من خطئه، بل أخطاؤه قطرة في بحر حسناته، رحمه الله تعالى.

٤- «التحرير والتنوير» للأستاذ الطاهر بن عاشور، رحمه الله تعالى:

وهو من كتب التفسير القلائل التي أثرت فيّ تأثيراً كبيراً واستعنت بها طويلاً

في درسي الأسبوعي في التفسير في جامع التعاون بحي الصفا بجدة، فقد أجاد الشيخ في تفسيره هذا أيما إجادة، ولولا أنه جنح إلى تأويل آيات الصفات لقُلت إنه لم يؤلف مثله، وأزعم أنه أجود كتاب وضع في التفسير منذ قرون عديدة، والرجل عالم باللغة والأصول والمنطق بل متضلع منها، ويأتي في تفسيره للألفاظ القرآنية بكلام فصل جزل، ويتخير من كلام المفسرين أحسنه وأجوده، ويمزج ذلك برأيه الجيد.

أما أسلوبه فيشبه أسلوب القدماء بل يبزّ كثيراً منهم، والقارئ لكتابه يحسب أنه أمام مصنف كُتب في زمن جودة الأدب وقوة اللغة في حدود القرن الرابع أو الخامس، وهذا كله ليس من باب المبالغة إنما هو معروف لمن اعتاد قراءة الكتاب.

وإذا عُرف أن الكتاب إنما هو إملاء على الطلبة فسيطول العجب، وذلك أن الإملاء أصعب جداً من الكتابة، ويظهر فيه عيوب الكلام من التكرار واللوازم والتفكك وغيرها لكن الكتاب نجى من كل ذلك.

وقد وقفت طويلاً أمام أكثر من آية عاجزاً عن فهمها على وجهها، ورجعت لكل ما يمكن أن أعود إليه من كتب التفسير لكن لم يُسعفني منها كتاب، فلما عدت إلى كتاب الطاهر الباهر وقفت على معناها على وجه حسن جداً، فلله دره من كتاب، ولله دره من كاتب مصنف، وأنا أُدرّس كتابه منذ أكثر من خمسة عشر عامًا وأُسعد بذلك لما يمدني من معان جليلات، وقد درّست المقدمات العشر التي بدأ بها الطاهر الكتاب، والواقف عليها وعلى سائر الكتاب يعلم مقدار علم الرجل، ويدرك أني لم أبالغ في وصفه، ولا تقدير أهميته.

وسيرة الرجل وحياته وطلبه العلم وبلوغه فيه مبلغًا جليلاً، كل ذلك منبئ

عن سبب قدرته على التصرف في الكلام وتطويع أنواع من العلوم والفنون في فصول الكتاب وأبوابه.

وقد قرأت في كتب له غير التفسير مثل «النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح» أي صحيح البخاري، وكتاب «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام»، وكتاب له في المقاصد، وكتاب له موجز في البلاغة، وكل ذلك لم يزدني إلا قناعة بأنه مصنف جاء في غير عصره، وإمام يُظلم لو وُضع في طبقة علماء زمانه، بل الحق أن يُلحق بالأولين، ويكون من طبقة العلماء المتقدمين، وغصة الحلق أن أكثر طلبة العلم المشارقة في زماننا لا يعرفونه، ولم يطلعوا على كتبه الجليلة، ولا عجب فالمغاربة عن المشارقة معزولون، وذلك هَمٌّ قديم تحدث فيه المغاربة بحرقة، والعزاء والسُلُوّ أن الرجل في السنوات العشر الأخيرة دارت حوله دراسات مشرقية مهمة، وكُتب في علمه وحياته، وبدأ طلاب العلم في الوقوف على تراثه، ولله الحمد والمنة.

٥- «شبهات حول الإسلام» للأستاذ محمد قطب، رحمه الله تعالى:

هذا الكتاب مهم لمن أراد معرفة طرائق رد الشبهات عن هذا الدين، خاصة أنه أُلف منذ أكثر من أربعين سنة، وأعجبني طريقة رد المصنف للشبهات التي أوردها، وهو صاحب لسان قويم، وطريقة عقلية جيدة في ترتيب ما يريد إيراده للقارئ، وهو مقنع في النتائج التي يخرج بها.

وأذكر أن هذا الكتاب قد قرأته قبل ذهابي للولايات المتحدة سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م فنفعني الله -تعالى- به في المناقشات التي جرت مع بعض النصارى

آنذاك، وقد بينت ذلك في مكان غير هذا، والكتاب يُكسب قارئه حصانة وملكة يستطيع بهما أن يرد على الشبهات، ويفند الأباطيل.

والعجيب أن المصنف ذكر في مقدمة الطبعة الخامسة أنه كان يود أنه لم يؤلف كتابه ذاك؛ لأن فيه دفاعًا عن الإسلام، والإسلام لا يحتاج إلى دفاع أحد، والإسلام ليس في قفص اتهام حتى يأتي من يدافع عنه، لكني أخالف الأستاذ فيما ذهب إليه، وأرى أن لكتابه هذا أثرًا جيدًا لا أقول في الدفاع عن الإسلام لكن في رد الشبهات عنه، وهذا منهج سلكه السلف والخلف، ونحن اليوم في أشد الحاجة إليه في زمن تعاظمت فيه الشبهات وصار لها مؤسسات وراءها دول كبرى تخترعها وتبثها في الناس ليل نهار.

٦- «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي:

لم أقرأ كتابًا في الأدب مؤثرًا مثل كتاب «البصائر والذخائر» ذي المجلدات الخمس في أجزاء تسعة، وأبو حيان من المؤلفين ذوي العبارات الجميلة بل فائقة الحسن والجمال، والأسلوب القوي، وقارئ كتبه لا يمل مهما كان ملولاً، وله مؤلفات نافعة جليلة.

أما هذا الكتاب فعباراته أجمل من الخريدة، وأشهى من العروس الجميلة، وألذ من الأكلة اللذيذة جاءت على جوع طويل، وشربة هنيئة مريئة بعد ظمأ شديد، وله في تأليفه طريقة فريدة؛ وذلك أنه يبتدئ كل جزء من أجزاء الكتاب التسعة بتسبيح وثناء على الله ومناجاة لم أقرأ مثلها لأديب أو عالم من قبله أو بعده(١).

---

(١) وقد أوردت أجمل ما عنده من تسبيح وثناء على الله تعالى - فيما أرى وأُقدّر - في كتاب «تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء» لمن أراد أن يرجع إليه.

ثم يثنّي بأحاديث مختارة لرسول الله ﷺ.

ثم يأخذ في مناقشة الفرق والمذاهب العقدية.

ثم يلج في موضوع ما.

ثم يختم الجزء بنوادر وطرائف عجيبة، ويختم كل جزء بدعاء رائع، بعبارة خاشعة خاضعة، ونَفَس منكسر ذليل بين يدي المولى، سبحانه وتعالى، وصنيعه هذا جعل كتابه واسطة عِقد كتب الأدب، لم يؤلف مثله فيما قرأت، والله تعالى أعلم.

ولولا أنه شان كتابه بذكر بعض النوادر والطرائف التي فيها ذكر العورات وتلك السوءات لكان كتابه واحداً في بابه ما له ثان، في ظني وتقديري، ومَن قرأ الكتاب عرف ما قلته.

وهذا الذي صنعه من إيراد المجون والإباحة في كتابه صنعه الصفدي أيضًا في «الوافي بالوفيات»، وصنعه فضل الله المحبي في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» وصنعه غيرهم في بعض المصنفات، وهو مذهب مرذول، لا يمكِّن الناشئة من الاستفادة الجيدة من هذه الكتب؛ إذ من ذا الذي سيدل أولاده على هذه الكتب وفيها ما فيها من ذكر العورات وتلك السيئات القبيحات من الطرائف المكشوفة والنوادر المقبوحة، والتغزل بالغلمان، والمفاخرة بالفواحش والموبقات؟

ودع عنك كتاب «المقامة البغدادية» فهو - على غرابة تصنيفه، وقوة عبارته، وجودة سبكه، وطرافة معانيه - أفحش كتبه، وأصعبها عبارة، وأشدها جرحًا للنفوس الحييّة، والفطر السوية، غفر الله له.

وأما كتاب «الإمتاع والمؤانسة» فهو كتاب بديع في التأليف، غريب في التصنيف، مشوق إلى حد كبير، بليغ العبارة، جميل الألفاظ، حسن النظم، لطيف المأخذ، وهو جزء واحد لا يُتردد في قراءته.

٧- «الروح» لابن القيم:

هذا كتاب جليل مهم، لكن القسم الأول منه هو الذي أثَّر فيَّ تأثيرًا بالغًا، وهو القسم الذي تحدث فيه الحافظ ابن القيم - رحمه الله تعالى- في منازل السلف في الآخرة في ضوء الرؤى التي رؤيت لهم، وأنا أعلم أن الرؤى لا يؤخذ منها حكم بمنزل أو درجة في الآخرة وإنما هو استئناس فقط لا غير، وهذه الرؤى التي رؤيت لأعلام من السلف مؤكدة للتفاضل في الدرجات الذي تواتر الإخبار به في كتاب الله - تعالى- وسنة رسوله؟.

فلما اطلعت على ذلك امتلأت بمشاعر عجيبة هزتني هزًا وأثرت في مسيرتي في الحياة على وجه لا أستطيع وصفه؛ وذلك لأني أردت أن أقيس عملي بعمل أولئك، وجهدي بجهدهم، وبذلي ببذلهم، وصلاتي بصلاتهم، وصيامي بصيامهم، وتوكلي بتوكلهم، وقناعتي بقناعتهم، فوجدت كل ذلك عندي كلاشيء ففكرت متى أبلغ منازلهم تلك التي رؤيت لهم؟ وكيف؟ وهذا ولّد فيّ عزمًا وتصميمًا على التدارك -شرحته بالتفصيل في كتابي «أثر المرء في دنياه»- لكن هيهات هيهات، فأولئك أقوام كانوا كالنجوم في زمانهم فكيف في زماننا؟ وكانوا قدوات للناس وأسوة للبشرية وليس فقط للمسلمين خير البريّة، فإن بكيت على نفسي وعملي لما اطلعت على تلك الرؤى العجيبة فذلك أقل ما أصنع، والله المستعان، وإنا لله وإنا إليه راجعون[١].

---

(١) يُنظر أيضًا كتابي «القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار».

هذا وقد حاول بعض الباحثين تخريج تلك المنامات وتحقيقها والحكم عليها، وأقول: وهل تحقق المنامات؟! وهل يحكم عليها بصحة أو ضعف؟! وما الداعي لهذا وقد أثبتها الإمام ابن القيم راضيًا بها ناقلاً لها عن أعلام السلف فلماذا محاولة هدم هذه الرؤى الجليلة وإجراء الحكم عليها كما يُحكم على الأحاديث بموازين علم الجرح والتعديل؟! وهذه الرؤى قد سيقت للاستئناس والتأثير العاطفي القلبي فلا ينبغي أن يسلك بها هذا المسلك، والله أعلم، خاصة أنه لا يُبنى عليها حكم شرعي، ولا يتعلق بها تقرير عقدي، ولا يسلك بها مسلك حُكميّ، إنما غاية أمرها الاستئناس بما فيها، ودفع النفوس إلى الاتعاظ والاعتبار بحال أهليها، والمجاهدة للوصول إلى شيء من أحوالهم وأعمالهم، رضي الله عنهم ورحمهم.

٨- «كلاب الإله» لجيمس رُسْتُن:

هذا كتاب لمؤلف أمريكي تُرجم إلى العربية، وفيه يصف المصنف ما حدث على مسلمي الأندلس من جور، وما صُب عليهم من عذاب محاكم التفتيش، وفيه -أيضًا- وصف المصنف لتفاني الملكة إيزابيلا وزوجها من أجل الدين النصراني ونشره وطرد المسلمين من الأندلس، وفيه -أيضًا- بيان للحقد الأعمى والتعصب المفرط ضد المسلمين، وفيه - ويا للأسف- بيان لعجز المسلمين العجيب الذي أصابهم في عصورهم الأخيرة في الأندلس والذل والهوان الذي كانوا عليه، وتذكرت وأنا أقرأ أثر عمر ﵁ المشهور: «أعوذ بالله من جلد الفاجر وعجز الثقة» وتذكرت قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، أما عن خيانات حكام الأندلس وتواطؤهم مع النصارى فحدِّث ولا حرج، وما أشبه الليلة بالبارحة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والكتاب مهم جدًا في بيان جملة حقائق غابت طويلاً عن أذهان أكثر المسلمين، فتعريفهم بها وإيقافهم عليها ربما يبعث فيهم من معاني العزة والكرامة واستعلاء الإيمان ما يقشعون به عنهم غبار الذل والهوان.

٩- رحلة عبد الرشيد إبراهيم «عالم الإسلام»[1]:

هذه من أهم الرحلات التي تركت فيّ أثرًا لا ينسى، وصاحبها رجل قِرْمي عاش في روسيا وتركيا، وقام برحلة رائعة قبل مائة عام -تقريبًا- وهو فقير معدم لا يكاد يملك شيئًا، ومع ذلك صبر على الشدة والفاقة، وضحى كثيرًا من أجل إسلامه، والدعوة إليه، ثم ارتحل مرة أخرى ليستقر في اليابان زيادة على ثلاثين سنة داعيًا إلى الله -تعالى- ثم مات على أرضها بعد أن حقق نجاحات كثيرة وأفلح في انتزاع اعتراف اليابانيين بالإسلام، وبنى عدة مساجد، وأسلم على يده جماعة من أهل اليابان، رحمه الله تعالى.

(١) داعية قرمي قازاني تتري عاش في روسيا التي استولت قديمًا على بلادهم. ولد سنة ١٢٧٣هـ الموافق عام ١٨٤٦م ببلدة تارا في سيبريا، وطلب العلم على مشايخ في بلاده، ولما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ذهب إلى الحرمين ليمكث في الأراضي الحجازية عشرين سنة، وليعلن برحلته تلك ابتداء سلسلة من الرحلات الطويلة على مدار ثمانين سنة تقريبًا. استقر في اليابان حوالي ثلاثين سنة، فبنى فيها مساجد، وسعى إلى أن اعترفت حكومة اليابان بالإسلام، وأدخل فيه رجالاً من أهل اليابان. توفي فيها رحمه الله تعالى سنة ١٣٦٤هـ الموافق عام ١٩٤٤م. انظر ترجمته المطولة في «ويكيبيديا».

وأكثر ما هزني وأثَّر فيّ في رحلته هو مروره على كوريا ووصفه للكوريين وصفًا كاد يخرجهم به عن حد الآدمية ويبلغ بهم مبلغ التوحش والهمجية، ولقاؤه برجل كوري في القطار وسؤاله إياه عن مستقبل الكوريين فقال الكوري باكيًا: نحن أمة كالبهائم، نحن أمة لا مستقبل لها !!

فإذا بالكوريين بعد قرابة مائة عام يصبحون أسياد آسيا في الصناعة ويكادون يقذفون باليابانيين والصينيين جانبًا، وتذكرت وأنا أقرأ كلام الكوري شركات إل جي، وهونداي، وسامسونج، وكيا، وغيرها فقلت في نفسي: سبحان الله: هؤلاء الكوريون قبل مائة عام كانوا أشبه بالبهائم فلا حضارة ولا دينَ ولا تاريخ ولا تراث، فكيف صاروا اليوم؟ ونحن الأمة العظيمة ذات الدين الوحيد الصحيح في الأرض والحضارة الضخمة، والتراث الموصول بالأنبياء العظماء آدم فمن بعده - صلوات ربي وسلامه عليهم - لا زلنا إلى يوم الناس هذا عالة على الآخرين في طعامنا وشرابنا وسلاحنا ودوائنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الكتاب صور من التضحيات وأخبار جليلات وقصص لطيفات فحق على المثقفين ودعاة الإسلام قراءته[1].

١٠- «مشارع الأشواق ومصارع العشاق» أو «مثير الغرام إلى بلاد السلام» لابن النحاس الدمياطي[2]:

---

(١) قد طبع الكتاب في مجلدين بعناية الدكتور صالح السامرائي -وفقه الله تعالى- وبترجمة اثنين من الأساتذة ومراجعة ثالث.

(٢) أحمد بن إبراهيم بن محمد، أبو زكريا، محيي الدين الدمشقي ثم الدمياطي، المعروف بابن النحاس: فرضي فاضل، مجاهد، من فقهاء الشافعية. ولد في دمشق، ورحل أيام تيمورلنك، إلى مصر، فسكن «المنزلة»، وله عدة تآليف، ولازم المرابطة والجهاد بثغر «دمياط» وقتل شهيداً في معركة مع الفرنج، مقبلاً غير مدبر (كما يقول ابن حجر) بقرب «الطينة» شرقي بحيرة المنزلة، ودفن بدمياط سنة ٨١٤ هـ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ١/ ٨٧.

هذا كتاب جليل، في الجهاد وفقهه، وقد كتبه المصنف بدمه -كما يقال- فقد مات شهيدًا، إن شاء الله تعالى.

وفي الكتاب قصص رائعة تستحق أن تكتب بماء الذهب، فيها تضحيات المسلمين بأنفسهم على مدار القرون، وفيه إجابة شافية على العمليات الاستشهادية الرائعة التي جرت في فلسطين وغيرها، وأذكر أني كنت قد سألت فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله تعالى- عن تلك العمليات فقال: هي حرام.

فقلت له: ما الدليل؟

فقال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فقلت له: إن فيها نكاية في العدو ولا يوصل إليهم إلا بهذا.

فقال: ولو.

وأذكر أني بت بشرٍ ليلة آنذاك مهمومًا ضيق الصدر، فلما صليت الفجر وقعت يدي على هذا الكتاب فوجدت المصنف قد ذكر هذه القضية في أكثر من خمسين صفحة، واستفاض في إيراد مذاهب الأئمة الأربعة فيها، وسماها: غمس الإنسان نفسه في العدو حاسرًا، يعني بدون درع فالموت فيها محقق إذن، وهي تشبه من كل وجه العمليات الاستشهادية الحديثة، وقد أتى بأدلة وآثار واضحة الدلالة على جواز هذه القضية بل استحبابها، ورأيت بعد ذلك كتابًا لشيخ الإسلام ابن تيمية يؤيد هذه القضية بعنوان: «قاعدة في الانغماس في العدو» يؤيد به هذا الانغماس وتلك التضحية الجليلة بل يراها من أقرب القربات، وأعظم العبادات.

أما ما في الكتاب من قصص فهو الجزء الرائع الجليل المؤثر في النفوس أيما تأثير.

١١- كتابا جلال أحمد أمين[١]:

للأستاذ كتابان في سيرة حياته: «هكذا علمتني الحياة»، وكتاب «رحيق العمر»، وقد قرأت الكتابين وتأثرت تأثرًا بالغًا بما فيهما من حيث الآتي:

١- ذكر المصنف جوانب من حياة أبيه فصدمني صدمة بالغة، ذلك أنه صور أن والده لم تكن صلته بهذا الدين العظيم قوية لا في نفسه، ولا في بيته، ولا في تصوراته، لا في شبابه ولا كهولته ولا شيخوخته، وما كنت أظن أن الأستاذ أحمد أمين كان هكذا، ولولا بقية حرمة له في نفسي لذكرت أشياء عجيبة ذكرها ولده في كتابيه وذكرها ولده الآخر حسين أحمد أمين في بعض كتبه.

وذلك - أي الانفصام العجيب بين الحديث في أمور الإسلام وبين الأخذ به في الحياة - مصيبة وقع فيها كثير من المثقفين الذين كَتبوا في الإسلام كتبًا حسنة التأليف والعرض، جيدة القواعد، وكانوا ملء السمع والبصر، لكن الواقف على حياتهم وصلتهم بالإسلام يُفجع بالبون الشاسع بين حياتهم وبين ما يكتبون، ولولا أني لا أحب أن يصدم القراء لأوردت هذه الأسماء وما خالفوا فيه كتاباتهم بسلوكهم الغريب في الحياة وبُعدهم عن الأخذ بالإسلام عبادة وسلوكًا والتزامًا، وهذا من أعجب العجب، وأذكر أن الأستاذ الداعية عبد الفتاح أبو غدة[٢] -رحمه الله تعالى- زارني في بيتي مرةً واحدة، لم يزرني

(١) مؤلف مصري جيد التأليف. أبوه الأستاذ الأديب المعروف أحمد أمين. وقد درس جلال في بريطانيا، واتبع الماركسية والاشتراكية ردحًا من الزمن ثم غادرهما إلى العلمانية المادية - فيما يبدو وهو أستاذ جامعي في أكثر من جامعة، وولي عدة وظائف، وما زال حيًا، هداه الله تعالى.

(٢) هو أحد الدعاة السوريين الكبار على منهج الإخوان المسلمين، وهو عالم حنفي كبير القدر. ولد في حلب سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م. له عدة كتب جليلة تأليفًا وتحقيقًا. تخرج في كلية الشريعة في الأزهر سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م وحصل على تخصص علوم تدريس من كلية اللغة العربية في =

أو أزره قبلها ولا بعدها، وحكى لي ما يشيب له المرء من قصص وأخبار أساتذة كبار عُرفوا بنصرة الإسلام وحسن الحديث فيه، عرفهم ورأى منهم رأي العين مخازي لا يليق ذكرها، وقد استحلفني ألا أذكرها، فإنا لله وإنا إليه راجعون فقد كان في ذلك الزمان جماعات كثر ممن أتقنوا معرفة الإسلام لكن قد فارق علمهم سلوكهم، وغلب عليهم عدم الالتزام بدينهم.

٢- ظهر جليًا أن علاقة المصنف بالله - تعالى - وبدينه وبكتابه العظيم وسنة سيد المرسلين ﷺ وبتراث الأمة وهمومها ومشكلاتها علاقة ضعيفة جدًا إن لم تكن منعدمة في أكثر الجوانب التي ذكرتها آنفًا، وحياته منفصلة عن كل ذلك انفصالاً بينًا، وحزنت كثيرًا من هذا الذي وقفت عليه في تفاصيل حياة المصنف، ومما زادني حزنًا أن الرجل موهوب، ذكي، متعدد القدرات والملكات، لكنه لم يسخِّر ذلك لخدمة دينه في شيء، ولم يشتغل يومًا من الدهر - فيما أخبر وذكر - وقد بلغ الثمانين لمصلحة الإسلام والمسلمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وحاله هذا هو حال كثير من المثقفين المسلمين الذين علاقتهم بالإسلام أوهى من خيوط العنكبوت، وعواطفهم إزاءه باردة جدًا، وجهودهم لمعرفته والوقوف على أماكن جلاله وعظمته قليلة جدًا، وسلوكهم في واد والإسلام في واد آخر، وحياتهم سلسلة من الانبهار بالمذاهب الوضعية، والرموز الغربية، إن قرأوا فلا يقرءون إلا للغربيين، وإن نظروا فلا ينظرون إلا

= الأزهر أيضًا سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م. ابتلى بالسجن سنة واحدة في سجن تدمر الصحراوي، ثم أفرج عنه في حرب سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. وانتقل إلى المملكة ليُدرّس في جامعة الإمام حوالي عشرين سنة حتى سنة ١٤٠٨هـ. ثم درس بجامعة الملك سعود بالرياض حتى عام ١٤١٠هـ. توفي في الرياض ودفن بالبقيع سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م رحمه الله تعالى. انظر «ذيل الأعلام» لـ أحمد العلاونة: ٢/ ١١١.

بأعينهم، وإن فكروا فلا يفكرون إلا بعقولهم، وإن قرروا فلا يخرجون عن تقريراتهم.

والعجيب أن المصنف - وهو في أواخر عمره - لا يشعر بندم، ولا يتراجع عن شيء، ولا يظهر لله توبة، ولا إلى دينه أوْبة، ولا إلى كتابه رجعة، ولا إلى سنة نبيه ﷺ تعظيمًا، ولا إلى رجال الإسلام تعرفًا ولا اقتداء، بل يلجّ فيما هو فيه، ويفتخر بما آل إليه، ويقرر ذلك في مواضع من كتابيه.

وعرفت عندما قرأت الكتابين لرجال الإسلام فضلهم، ولدعاة الإسلام عظمتهم؛ فقد عاشوا له، وماتوا من أجله، وضحوا بكل ما يملكون من مال ووقت وجهد لأجل رفعة قدره، وتعرضوا لأخطار عظيمة في سبيل إبلاغ رسالته، بينما كان غيرهم ينعم بحياته، لا يلتفت إلى شيء من ذلك، ولا يخطر بباله أمر مما هنالك، فيالله كم هو الفارق بين العامل للإسلام وبين مَن هو في ملذاته غارق، ولدينه مباين ومفارق[1]؛ هذا ولم يذكر المصنف في كتابه أنه صلى قط، أو أنه قرأ القرآن قط، أو أنه قرأ كتابًا إسلاميًا قط، أو وقف على سنة النبي ﷺ قط، أو أنه شارك في خدمة الإسلام بشيء قط، أو أنه ذكر همًّا للمسلمين قط على كثرة ما فرّع وذكر في كتابه، ولعله قد صنع شيئًا من ذلك لكن طيّ ذكره تمامًا في كتابه دال على عدم عنايته ألبتة بشيء مما ذكرته، وإلى الله المشتكى، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فحال الرجل من جملة المصائب التي يسترجع منها.

- تلك كانت بعض الكتب التي تأثرت بها، ولم أستقص خوفًا من التطويل، وإنما مثلت ببعض الكتب واكتفيت بها عن بعضها الآخر.

---

(١) لا أقصد الكفر ولا أريده إنما هو تقرير للواقع.

المبحث الرابع:

مقاطع مختارة من كتب قرأتها

قد قرأت في حياتي كتبًا كثيرة، وفي كثير منها مقاطع مهمة جليلة كنت قد علّمت عليها بعلامة، وأريد في هذا المبحث أن أورد بعضها لجلالها وأهميتها فإليكموها:

١- من ألطف ما قرأت في تدبر القرآن ما جاء في كتاب الإمام السيوطي «الإتقان في علوم القرآن»، وهو كتاب جليل، جاء فيه:

«قال الماوردي:

سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبي، يقول: سألتُ الحسْينَ بن الفضل فقلت:

إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن؛ فهل تجد في كتاب الله «خير الأمور أوساطها»؟

قال نعم: في أربعة مواضع:

- قوله تعالى: ﴿لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

- وقوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

- وقوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠].

قلت: فهل تجد في كتاب ا« «مَنْ جهل شيئًا عاداه»؟

قال نعم: في موضعين:

- ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ [يونس: ٣٩]

- ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١]

قلت: فهل تجد في كتاب الله: «احذر شرّ من أحسنت إليه»؟

قال: نعم. ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: ٧٤].

قلت: فهل تجد في كتاب الله «ليس الخبر كالعيان»؟

قال في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قلت: فهل تجد «في الحركات البركات»؟

قال: في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠].

قلت: فهل تجد «كما تدين تدان»؟

قال: في قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: «حين تَقْلي تدري»؟

قال: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٢].

قلت: فهل تجد فيه «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين»؟

قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤].

قلت: فهل تجد فيه «من أعان ظالمًا سُلّط عليه»؟

قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: «لا تلد الحيّة إلا حيّة»؟

قال: قوله تعالى: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

قلت: فهل تجد فيه: «للحيطان آذان»؟

قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

قلت: فهل تجد فيه: «الجاهل مرزوق والعالم محروم»؟

قال: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

قلت: فهل تجد فيه: «الحلال لا يأتيك إلا قوتًا، والحرام لا يأتيك إلا جُزافًا»؟

قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣][1]...

٢- وكذلك جاء في الإتقان فصل مهم بعنوان مفردات القرآن والمقصود بهذا العنوان الآيات الواردة في القرآن التي يقال في كل واحدة منها هي أعظم آية في

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن»: ٤/ ٣-٤٣.

كـذا، أو أقـوى آية في كـذا، أو أحكم آية في كـذا إلخ . . . ، وهو فـصل جليل جيد.

قال الإمام السيوطي، رحمه الله تعالى:

أخرج السِّلَفيّ في المختار من الطيوريات، عن الشعبيّ، قال: لقيَ عمرُ بن الخطاب ركبًا في سفر، فيهم ابن مسعود، فأمر رجلاً يناديهم: من أَين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفَجّ العميق، نريد البيت العتيق.

فقال عمر: إن فيهم لعالمًا، وأمر رجلاً أن يناديَهم:

أيّ القرآن أعظم؟

فأجابه عبدالله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال: نادِهم: أيُّ القرآن أحكم؟

فقال ابن مسعود: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

قال: نادهم: أيّ القرآن أجمع؟

فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فقال نادهم: أيُّ القرآن أحزن؟

فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

فقال نادهم: أيّ القرآن أرجَى؟

فقال ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣].

فقال: أفيكم ابنُ مسعود؟ قالوا: نعم.

أخرجه عبدالرزاق في تفسيره بنحوه.

- وأخرج عبدالرزاق أيضًا، عن ابن مسعود، قال:

أعدلُ آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأحكم آية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] إلى آخرها.

وأخرج الحاكم عنه، قال: إن أجمع آية في القرآن للخير والشر:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأخرج عنه، قال: ما في القرآن آيةٌ أعظمُ فرجًا من آية في سورة الغُرَف:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣][١].

وما في القرآن آيةٌ أكثر تفويضًا من آية في سورة النساء القُصرى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣][٢].

- وأخرج أبو ذرّ الهرويّ في فضائل القرآن من طريق يحيى بن يَعْمُر، عن ابن مسعود، قال:

---

(١) وتسمى سورة الغرف لورود الغرف فيها في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾.

(٢) وتسمى سورة النساء الصغرى والقُصْرى.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أعظم آية في القرآن»:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

وأعدل آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] إلى آخرها.

وأخوف آية في القرآن: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وأرْجى آية في القرآن:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ﴾ [الزمر: ٥٣] إلى آخرها.

- ويلحق بهذا ما أخرجه ابن المنذر، عن ابن مسعود، أنهُ ذكر عنده بنو إسرائيل، وما فضّلهم الله به، فقالَ: كان بنو إسرائيل إذا أذنب أَحدُهم ذنبًا أصبح وقد كتبت كفارته على أُسْكُفّة بابه، وجُعلت كفارة ذنوبكم قولاً تقولونه؛ تستغفرون الله فيغفر لكم، والذي نفسي بيده لقد أعطانا الله آية لَهيَ أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

- وما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن ابن عباس قال:

ثماني آياتٍ نزلت في سورة النساء، هنّ خير لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس وغربت:

- أولهنّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

- والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ [النساء: ٢٧].

- والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

- والرابعة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

- والخامسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

- والسادسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [النساء: ١١٠].

- والسابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

- والثامنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢].

- وما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أيُّ آية أرخَص[1] في كتاب الله؟

قال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

- وما أخرجه ابن راهويه في مسنده، أنبأنا أبو عمر العَقَديّ، أنبأنا عبدالجليل ابن عطيّة، عن محمد بن المنتشر، قال: قال رجل لعمر بن الخطاب: إنّي

(١) أي أعظم آية فيها رخصة للمؤمنين، أي تفريج عنهم.

لأعرف أشدَّ آية في كتاب الله تعالى، فأهوى عمرُ فضربه بالدِّرَّة[1]، وقال: مالك نقّبت عنها حتى علمتها! ما هي؟ قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، فما منا أحد يعمل سوءاً إلا جُزي به، فقال عمر: لبثنا حين نزلت ما ينفعنا طعام ولا شراب حتى أنزل الله بعدَ ذلك ورخَّص:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

- وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: سألت أبا بَرْزَةَ الأسلميّ عن أشدّ آية في كتاب الله تعالى على أهل النار، فقال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وفي صحيح البخاري عن سفيان، قال: ما في القرآن آية أشد عليّ من: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

- وأخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: «ما في القرآن أشدّ توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣].

- وأخرج ابن المبارك في كتاب الزهد عن الضّحاك بن مزاحم، قرأ في قول الله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ قال ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

---

(١) عصا قصيرة.

- وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: ما أنزلت على النبي ﷺ آية كانت أشدّ عليه من قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

- وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين: لم يكن شيء عندهم أخوفَ من هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

- وعن أبي حنيفة: أخوف آية في القرآن: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

- وقال غيره: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، ولهذا قال بعضهم: لو سمعتُ هذه الكلمة من خفير الحارة لم أنَمْ.

- وفي النوادر لأبي زيد، قال مالك: أشدّ آية على أهل الأهواء قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ فتأوّلها على أهل الأهواء.

انتهى.

- وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية، قال: آيتان في كتاب الله ما أشدهما على مَنْ يجادل فيه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

- وقال الكرماني: ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]، من أشكَلِ آية في القرآن حكمًا ومعنى وإعرابًا.

- وقال غيره: قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] جمعت أصول أحكام الشريعة كلِّها: الأمر والنهى والإباحة والخبر.

- وقال الكرمانيّ في العجائب في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، قيل: هو قصة يوسف، وسمّاها «أحسن القصص» لاشتمالها على ذكر حاسدٍ ومحسودٍ، ومالك ومملوك، وشاهدٍ ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبسٍ وإطلاق، وسجن وخلاص، وخصبٍ وجدب، وغيرها ممَّا يعجز عن بيانها طوق الخلق.

- وقال: ذكر أبو عبيدة عن رُؤبة: ما في القرآن أعرب من قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ الحجر: ٩٤].

- وقال بعضهم: أطول سورة في القرآن البقرة، وأقصرها الكوثر، وأطول آية فيه آية الدَّين، وأقصر آية فيه ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، ﴿وَالْفَجْرِ﴾، وأطول كلمة فيه رسمًا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

- وفي القرآن آيتان جمعت كلٌّ منهما حروف المعجم:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

- وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا في موضعين:

﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ﴾ [الكهف: ٦٠].

ولا كافان كذلك إلا: ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ [المدثر: ٤٢].

ولا غينان كذلك إلا ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولا آية فيها ثلاثة وعشرون كافًا إلا آية الدَّيْن.

ولا آيتان فيهما ثلاثة عشرة وقفًا إلا آيتا المواريث.

ولا سورة ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا والعصر إلى آخرها.

ولا سورة إحدى وخمسون آية، فيها اثنان وخمسون وقفًا إلا سورة الرحمن.

ذكر أكثر ذلك ابن خالويه.

وقال أبو عبدالله الخبازيّ المقرئ:

أول ما وردتُ على السلطان محمود بن ملكشاه سألني عن آية أولها غين، فقلت: ثلاثة: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ [غافر: ٣] وآيتان بخلف: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ٢]، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ [الفاتحة: ٧].

ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر: في القرآن أربع شدَّات متوالية في قوله:

﴿نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ [مريم: ٦٤، ٦٥].

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠].

﴿قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ﴾ [الملك: ٥][1].

٣- وقرأت في كتاب «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد -رحمه الله تعالى، وأعلى درجته- فصلاً جليلاً بيَّن فيه أهمية تدبر كتاب الله -تعالى- والعمل بما فيه فقال:

«الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا مَن ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

والحمد لله لقد منَّ عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي، ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله -سبحانه- يتحدث إليّ بهذا القرآن، أنا العبد القليل الصغير، أيُّ تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أيُّ رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أيُّ مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟...

عشت أتملى -في ظلال القرآن- ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود، لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني، وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب، وأسأل: كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن»: ٤/١٢٨-١٣٦.

وعشت - في ظلال القرآن- أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله، ثم أنظر فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تُملى عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها، وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خُطاها إلى هذا الجحيم؟

يا حسرةً على العباد!!!

وعشت -في ظلال القرآن- أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود، أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه، إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده، وإنه في الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها، والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول، والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة في الطريق، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله، إنما هو قسط من ذلك النصيب، وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك، فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع...

أي راحة، وأي سعة وأي أُنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟

وعشت -في ظلال القرآن- أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.

والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شعاب الزمان، إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم

وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه -كما يتجلى في ظلال القرآن- مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكَرِّ الدهور، وتغيُّر المكان، وتعدُّد الأقوام، يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد، ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقًا من نصر الله، متعلقًا بالرجاء فيه، متوقعًا في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ومن ثَمّ عشت -في ظلال القرآن- هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير

الضمير، عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر، عشت في كنف الله وفي رعايته، عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

إن الوجود ليس متروكًا لقوانين آلية صماء عمياء، فهناك دائمًا وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾

[القصص : ٦٨]، كذلك تعلمت أن يد الله تعمل، ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة؛ وأنه ليس لنا أن نستعجلها؛ ولا أن نقترح على الله شيئًا.

ومن ثَم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل -الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزِّل هذا القرآن- ومن ثَم لم يكن معتسفًا ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج، إن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحثه رغبة فان، يخشى أن يَعْجلَه الموت عن تحقيق غايته البعيدة؛ كما يقع لأصحاب المَذاهب الأرضية الذَين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر، وتسيل الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور، ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة! فأما الإسلام فيسير هينًا لينًا مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقوّمها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها، إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف، فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هِيْنَة وفي طمأنينة ثم يكون دائمًا ما يريده الله أن يكون . . .

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟

وانتهيت من فترة الحياة -في ظلال القرآن- إلى يقين جازم وحاسم إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله.

والرجوع إلى الله -كما يتجلى في ظلال القرآن- له صورة واحدة وطريق واحد، واحد لا سواه، إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده في شئونها وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثًا هائلاً في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرًا في كل ما ألمّ بها من نكبات.

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، وأُسنَت الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة؛ و﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، تسلَّم الإسلام

القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم؛ كما حقق لها واقعًا اجتماعيًا فريداً، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاءً، نعم! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها في ظلال القرآن، ومنهج القرآن، وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة؛ ونحُي الإسلام عن القيادة، نحُي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة، صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!...

هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة في ظلال القرآن لعل الله ينفع بها ويهدي: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠][(١)].

٤- وقرأت في كتاب «قالوا عن الإسلام» للدكتور عماد الدين خليل كلامًا جليلاً في القرآن العظيم نقله عن أساتذة ومفكرين من النصارى الذين أسلم بعضهم وبقي بعضهم الآخر على دينه، فكان مما نقله الآتي:

(١) «في ظلال القرآن»: ١/ ٥-١٢.

١- قال العالم الفرنسي موريس بوكاي:

«لقد قمت بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث فأدركت أنه لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث»[١].

٢- إبراهيم خليل أحمد[٢]:

«أعتقد يقينًا أني لو كنت إنسانًا وجوديًا... لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث -في كل مناحيه- لآمنت برب العزة والجبروت، خالق السماوات والأرض، ولن أشرك به أحدًا...»[٣].

٣- ألكس لوزون[٤]:

«خلف محمد ﷺ للعالم كتابًا هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق، وكتاب

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٤٣.

(٢) قس من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩م، يحمل شهادة عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية، عمل أستاذًا بكلية اللاهوت بأسيوط كما أرسل عام ١٩٥٤م إلى أسوان سكرتيراً عامًا للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام. ولكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين، وأشهر إسلامه رسميًا عام ١٩٥٩م.

كتب العديد من المؤلفات. أبرزها «ولا ريب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن»، «المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي»، و«تاريخ بني إسرائيل»، ولقد سُقت قصة هدايته في المبحث الثامن.

(٣) «قالوا عن الإسلام» ص ٤٤.

(٤) فيلسوف فرنسي.

مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثًا مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن وقوانين الطبيعة»[١].

٤- د.شومبس[٢]:

«ربما تعجبون من اعتراف رجل أوروبي مثلي بهذه الطريقة، فقد درست القرآن فوجدت فيه تلك المعاني العالية، والأنظمة المحكمة، والبلاغة الرائعة التي لم أجد مثلها قط في حياتي، جملة واحدة منه تغني عن مؤلفات، وهذا لا شك أكبر معجزة أتى بها محمد ﷺ عن ربه»[٣].

٥- الكونت هنري دي كاستري[٤]:

«إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات تعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بها لفظًا ومعنى»[٥].

٦- المسيو بيرك:

قال في البرلمان الإنجليزي: «إن تعاليم القرآن أحكم وأعقل وأرحم تشريع عرفه التاريخ»[٦].

(١) «بالقرآن أسلم هؤلاء» ص ٤٧ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ١٣٦.

(٢) مستشرق ألماني.

(٣) «بالقرآن أسلم هؤلاء» ص ٤٧ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ١٣٦.

(٤) مقدم في الجيش الفرنسي. توفي سنة ١٩٢٧م.

(٥) «القرآن الكريم من منظور غربي» للدكتور عماد الدين خليل: ص ١٨ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ١٣٨.

(٦) «دفاع عن الإسلام» ص ٦٣ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ١٤١.

٧- هير شفيلد:

«ليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافة نواحيها في العالم الإسلامي»[١].

٨- إيرفنج[٢]:

- «كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح عليه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أُدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل، حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين؛ إذ إنه خاتم الكتب السماوية...».

- «يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء، وإلى مذاهب أخلاق سامية»[٣].

٩- بلاشير[٤]: «لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه؛

(١) «التربية في كتاب الله» محمود عبدالوهاب ص ٥٢ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ١٤١.

(٢) واشنجتون إيرفنج w.irving. مستشرق أمريكي. أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس.

(٣) «قالوا عن الإسلام» ص ٤٥.

(٤) بلاشير R.L.Blachere. ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر ١٩٢٢م وعين أستاذًا لها في معهد مولاي يوسف بالرباط، ثم انتدب مديراً لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط ١٩٢٤-١٩٣٥م، واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذًا لكرسي الأدب العربي ١٩٣٥-١٩٥١م، ونال الدكتوراه ١٩٣٦م، عين أستاذًا محاضراً في السوربون ١٩٣٨م، ومشرفًا على مجلة المعرفة، التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، من آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجلات الاستشراقية، وكتاب «تاريخ الأدب العربي» باريس ١٩٢٥م، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧-١٩٥٢م) وغيرها.

فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجَرْس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك العهد، إن خصوم محمد ﷺ قد أخطأوا عندما لم يشاؤوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم -استقرائيًا فقط- بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخَطَل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول ﷺ ذكرها في هذه السور اندفاعًا وألَقًا وجلالة تخلف وراءها بعيدًا أقوال فصحاء البشر، كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا».

- «. . إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضًا ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من تحف، إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن، وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رتله المؤمنون»(١).

١٠- د. جرينيه(٢):

«إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري وأعلمها جيدًا فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة فأسلمت؛ لأنني تيقنت أن محمدًا أتى بالحق الصُراح قبل ألف سنة من قبل أن يكون هناك مُعلم أو مدرس من البشر».

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٤٦، ٤٧.

(٢) طبيب فرنسي معروف كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي.

ثم قال كلامًا مهمًا جدًا:

«ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيدًا -كما قارنت أنا- لأسلم بلا شك، إن كان عاقلاً خاليًا من الأغراض»[(١)].

١١- القس جان باتيست أهوينمو[(٢)]:

«سبب إسلامي تم خلال وجودي في محاضرة عبارة عن مجادلة بين مسلم ومسيحي، ولقد اقتنعت أثناء هذه المحاضرة بسورة مريم وسورة أخرى، وبأن الإسلام هو دين الحق»[(٣)].

١٢- وليم موير[(٤)]:

«إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي للنص نفسه المقبول من الجميع حتى اليوم هو حجة ودليل على صحة النص المنزَّل الموجود معنا»[(٥)].

---

(١) «بالقرآن أسلم هؤلاء» ص ٧٦ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ٣٤٢.

(٢) حصل على ليسانس في علم اللاهوت، وكان قسيس كنيسة وأسلم في كوناكري عاصمة غينيا سنة ١٩٩١م.

(٣) «بالقرآن أسلم هؤلاء» ص ٧٦ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ٣٤٢.

(٤) مستشرق بريطاني ولد سنة ١٨١٩م وتوفي سنة ١٩٠٥م.

(٥) «هذا هو القرآن» ص ٥٥.

١٣- بوازار[١]:

- « . . . إن القرآن لم يُقَدَّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة».

- « . . إن الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث . . »[٢].

١٤- بوتر[٣]:

- « . . عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق؛ الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع، وأسلوب قاطع، لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة».

---

(١) مارسيل بوازار m.poizar مفكر، وقانوني فرنسي معاصر. أولى اهتماماً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، وكتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين. ويعتبر كتابه «إنسانية الإسلام»؛ الذي انبثق عن الاهتمام نفسه، علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.

(٢) «قالوا عن الإسلام» ص ٤٨، ٤٩.

(٣) ديبورا بوتر D.Potter ولدت عام ١٩٥٤م، بمدينة ترافيرز، في ولاية متشيغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيجان، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠م، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكراً كان أم أنثى.

- «إن المضمون الإلهي للقرآن الكريم هو المسئول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر..».

- «كيف استطاع الرسول محمد ﷺ الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذاً أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل»[(١)].

١٥- بيكارد[(٢)]:

«.. ابتعت نسخة من ترجمة سافاري (savary) الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما أملك، فلقيت من مطالعتها أعظم متعة، وابتهجت بها كثيراً حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق عليّ بنوره المبارك»[(٣)].

١٦- حتي[(٤)]:

- «إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٤٩، ٥٠.

(٢) وليم بيرشل بيكارد W.B.Beckard إنكليزي، تخرج من كانتر بوري. مؤلف وكاتب مشهور، ومن بين مؤلفاته الأدبية بالإنكليزية «مغامرات القاسم» و«عالم جديد»، شارك في الحرب العالمية الأولى وأسر، عمل فترة من الوقت في أوغندا. أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.

(٣) «قالوا عن الإسلام» ص ٥١.

(٤) د. فيليب حتي P.Hitti ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٠٨م، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا ١٩١٥م، وعين معيداً في قسمها الشرقي (١٩١٥-١٩١٩م)، وأستاذاً لتاريخ العرب في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩١٩-١٩٢٥م)، وأستاذاً مساعداً للآداب السامية في جامعة برنستون (١٩٢٦-١٩٢٩م)، وأستاذاً ثم أستاذ كرسي ثم رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩-١٩٥٤م)، حين أحيل على التقاعد، انتخب عضواً في جمعيات ومجامع عديدة. =

آخر، ولا يمكن أن يُقلَّد، وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى».

«.. إن إعجاز القرآن لم يَحُلْ دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي، أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نُقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية، إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات»[١].

١٧- داود[٢]:

«.. تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية؛ لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحير: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرأت الآيات (٣٠-٣٩) من سورة البقرة، وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق..».

= من آثاره: «أصول الدولة الإسلامية» ١٩١٦م، «تاريخ العرب» ١٩٢٧م، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» ١٩١٥م، «لبنان في التاريخ» ١٩١٦م، وغيرها.

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٥٢.

(٢) عامر علي داود A.Ali David ينحدر من أسرة برهمية، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمار، كان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان الجواب هو انتماءه للإسلام.

«. . إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية، وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة»[(١)].

١٨- درمنغم[(٢)]:

- «للمسيح عليه السلام في القرآن مقام عال، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده، وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده، والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى عليه السلام كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر، وهو يذم مذهب القائلين بألوهية المسيح عليه السلام ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم».

- «سيكون القرآن حافزاً للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضاً على القتال جامعاً لشئونه، محركاً لفاتري الهمم، فاضحاً للمخلفين مخزياً للمنافقين، واعداً الشهداء بجنات عدن».

- «كان محمد ﷺ يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٥٣.

(٢) إميل درمنغم E.Dermenghem مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره: «حياة محمد» باريس ١٩٢٩م، وهو من أدق ما صنفه مستشرق عن النبي ﷺ، و«محمد والسنة الإسلامية» باريس ١٩٥٥م، ونشر عدداً من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: «المجلة الإفريقية»، و«حوليات معهد الدراسات الشرقية»، و«نشرة الدراسات العربية». . إلخ.

يكون أمينًا مصغيًا أو سجلاً صادقًا أو حاكيًا معصومًا لما يسمعه من كلام الظل الناطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة، ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بد له من معجزة يتحدى بها، والقرآن هو معجزة محمد ﷺ الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد ﷺ يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته، ولا ريب أن في كل آية منه -ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة- تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هناك ما يجب أن يبحث به عن سر نفوذه، وعظيم نجاحه»(١).

١٩- دينيه(٢):

- «لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد، وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر؛ الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم».

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٥٣، ٥٤.

(٢) إتين دينيه ١٨٦٠-١٩٢٩م Et.Dinet تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين سنة ١٩٢٧م، وحج إلى بيت الله الحرام ١٩٢٨م.

- «. . أحس المشركون، في دخيلة نفوسهم أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم ﷺ، وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخّاذة التي ألهمها إيمان سماوي، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا. . ».

- «إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: «المعجزة الخالدة» وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوربيون لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة».

- «إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه يُحدث مثل هذا التأثير في نفوس علماء لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماس التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟ لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمروا فيه، أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ﷺ ذلك الأمي الذي لم ينل حظّاً من المعرفة؟ كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات. . »[1].

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٥٦، ٥٧.

٢٠- ديورانت(١):

«. . ظل القرآن أربعة عشر قرنًا من الزمان محفوظًا في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال، والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضًا، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررًا من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقّاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض. . »(٢).

٢١- ريسلر(٣):

-«. . لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أُنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال.

ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية، ويجب أن تقرأه في لغته التي كُتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته.

(١) ول ديورانت WA Durant مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه «قصة الحضارة» ذو الثلاثين مجلدًا، واحدًا من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥م، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك «قصة الفلسفة».

(٢) «قالوا عن الإسلام» ص ٥٧، ٥٨.

(٣) جاك. س. ريسلر J.S.Restler باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس؛ حيث تزخر الأفكار قوة، وتتوهج الصور نضارة.

فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً ﷺ كان ملهمًا بجلال الله وعظمته».

- «كان في القرآن - فوق أنه كتاب ديني - خلاصة جميع المعارف، وظل زمنًا طويلاً أول كتاب يُتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية، ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية، ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية؛ إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها؛ ولذلك يجب أن يُقرأ القرآن في نصه الأصلي».

«إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة، وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، . . . إلخ».

- «حقًا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات، ولا لتبديلات».

- «يظل القرآن طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية؛ فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر»(١).

٢٢- ستشيجفسكا(٢):

«إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة».

٢٣- سلهب(٣):

- «إن الآية التي أستطيب ذكرها هي التي تنبع سماحًا إذ تقول:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٥٩، ٦٠.

(٢) يوجينا غيانة ستشيجفاسكا Bozena Gajana Stryzewska باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين اختصاصيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥م) تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراستها العليا في كلية الحقوق وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٣) نصري سلهب N.Salhab نصراني من لبنان، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة، كما عُرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والنصرانية في لبنان -كما يزعم- إن على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع، وعبر الستينيات كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والنصرانية على السواء، متوخيًا الهدف نفسه، من مؤلفاته «لقاء المسيحية والإسلام» ١٩٧٠م، و«في خطى محمد» ١٩٧٠م.

ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم، إنها لعبارات يجدر بنا جميعًا مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء؛ لأنه البناء الذي فيه نلتقي، والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله، والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المنزلة واحدة، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يدعى حينًا «أم الكتاب» وحينًا آخر «اللوح المحفوظ» أو «الإمام المبين».

- « . . إن محمداً ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأمي يُهدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين».

-« . . الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من بلاغة، ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثورة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير».

- «لم يُقَدَّرْ لأي سِفر[(١)]، قبل الطباعة، أيًا كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب».

- «تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله . . »[(٢)].

---

(١) أي كتاب.

(٢) «قالوا عن الإسلام» ص ٦١، ٦٢.

٢٤- سوسة(١):

- «يرجع ميلي إلى الإسلام حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى، فولعت به ولعًا شديدًا، وكنت أطرب لتلاوة آياته . . ».

- « . . الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أمر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب، وقد جاء ذلك تأييدًا علميًا للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنًا على لسان النبي ﷺ.

أما الفرقان المجيد فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقًا الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيرًا ما يصوبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام، والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير، وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه ﷺ دون أن يتغير فيه حرف واحد»(٢).

---

(١) د. أحمد نسيم سوسة Dr. A. N. Sousa باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، وتوفي قبل سنوات قلائل.

ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الري، وفند في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة: «مفصل العرب واليهود في التاريخ»، و«في طريقي إلى الإسلام» الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

(٣) «قالوا عن الإسلام» ص ٦٢، ٦٣.

٢٥- فاغليري[١]:

- «إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله أنباء تتصف بيقين مطلق، أنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي، أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي.

إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لا بد أن تؤثر في نفسها وجَرْسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها».

- «إنه يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تُضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا -وهما صفتان لا تجتمعان عادة- حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينم أي منها عن أدنى موهبة شعرية».

---

(١) لورا فيشيا فاغليري L. Veccia Vaglieri باحثة إيطالية معاصرة، انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا، وإلى فقه العربية وآدابها.

من آثارها: «قواعد العربية» في جزءين ١٩٣٧-١٩٤١م، و«الإسلام» ١٩٤٦م، و«دفاع عن الإسلام» ١٩٥٢م، والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة.

- «لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصه ظل صافيًا غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، ما دام الكون».

- «إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حس بالملل، على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحبب نفسه إلى المؤمن أكثر يومًا بعد يوم، إنه يوقع في نفس مَن يتلوه أو يصغي إليه حسًا عميقًا من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الإنجيل عن ظهر قلب في أوروبة كلها».

- «إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة، إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة -مع تخييرها بين قبوله ورفضه- كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد ﷺ أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض».

- «فيما يتصل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم لا يقيم أيما حد مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد»[١].

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٦٦-٦٨.

٢٦- كوبلولد[١]:

- «الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفًا ولا تعريفًا، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب، ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: إذا لم يكن شعرًا، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخًا ولا وصفًا، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل، ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطبًا فلسفية كمحاورات أفلاطونية، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميًا في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد في كل الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس».

- «أشار الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال:

«أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كُنْهُ الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًا، والحق والواقع أن أكثر الكتَّاب ارتيابًا وشكًا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره،

---

(١) اللادي إيفلين كوبولد Lady E.Cobold نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز وحجّت إلى بيت الله، وكتبت مذكرات عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: «الحج إلى مكة» لندن ١٩٣٤م، والذي ترجم إلى العربية بعنوان: «البحث عن الله».

وإن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن، ذلك أن هذا الأسلوب؛ الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس، كان لفعله الأثر العميق في كل سامع يفقه اللغة العربية؛ لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذي لم يُسمع بمثله بلغة أخرى . . » .

- «الواقع أن للقرآن أسلوبًا عجيبًا يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحسن تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده، قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ أن تجد فيها غريبًا، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشكلة منسجمة لا تحس فيها لفظًا نابيًا عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه»(١).

٢٧- كويليام(٢):

- «أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية، إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية، ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان،

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٧٢، ٧٣.

(٢) عبدالله كويليام Kwelem مفكر إنكليزي، ولد سنة ١٨٦٥م، وأسلم سنة ١٨٨٧م، وتلقب باسم: «الشيخ عبدالله كويليام». من آثاره: «العقيدة الإسلامية» ١٨٨٩م، و«أحسن الأجوبة».

ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة، وعلى ذلك فالقرآن يختلف ماديًا عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية، بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية، وهي غير معقولة وعديمة التأثير».

«لقد عثرت في دائرة المعارف العامة Pular Encyclopedia على نبذة نصها كما يأتي:

«إن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية، فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقيًا بلا تقليد ودون مثيل، أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية»[١].

٢٨- لاندو[٢]:

- «بسبب أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية إلى لغة أخرى تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٧٣، ٧٤.

(٢) روم لاندو R.Landau نحّات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى سنة ١٩٣٧م، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة ١٩٥٢-١٩٧٥م، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي إفريقية في «المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية» في سان فرانسيسكو سنة ١٩٥٣م.

من آثاره: «الله ومغامرتي» ١٩٣٥م، «بحث عن الغد» ١٩٣٨م، «سلم الرسل» ١٩٣٩م، «دعوة إلى المغرب» ١٩٥٠م، «سلطان المغرب» ١٩٥١م، «فرنسا والعرب» ١٩٥٣م، «الفن العربي» ١٩٥٥م، وغيرها.

ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئًا من روح الوحي المحمدي، والواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجمتهم تنوء بالتحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم، وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئًا من روعة كلمات القرآن وقوتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية»[1].

٢٩- مونتاي[2]:

- «إنني لا أشك لحظة في رسالة محمد ﷺ، وأعتقد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه بعث للناس كافة، وأن رسالته جاءت لختم الوحي الذي نزل في التوراة والإنجيل، وأحسن دليل على ذلك هو القرآن المعجزة. فأنا أرفض خواطر بسكال العالم الأوروبي الحاقد على الإسلام والمسلمين إلا خاطرة واحدة وهي قوله: ليس القرآن من تأليف محمد ﷺ، كما أن الإنجيل ليس من تأليف متّى».

- « . . إن مثل الفكر العربي الإسلامي البعيد عن التأثير القرآني كمثل رجل أُفرغ من دمه»[3].

---

(١) «قالوا عن الإسلام» ص ٧٥.

(٢) فنساي مونتاي: المنصور بالله الشافعي F.Montague فرنسي، رجل بحث وترحال، اختص بدراسة القضايا الإسلامية والعربية عن كَثَب سنوات عديدة في المغرب والمشرق وإفريقية وآسيا، ونشر عشرات الأبحاث والكتب عن الإسلام والحضارة الإسلامية، وانتهى الأمر به إلى إعلان إسلامه في صيف عام ١٩٧٧م.

(٣) «قالوا عن الإسلام» ص ٧٧، ٧٨.

٣٠- وهذا خصم من خصوم القرآن وهو وزير المستعمرات الفرنسية في الجزائر «لاكوست» يقول:

«ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا».

وقد قال ذلك لما ظهرت بعض الفتيات الجزائريات محجبات في حفل بمناسبة مرور مائة سنة على احتلال الجزائر، فلما رأى ذلك قال هذا الكلام[١].

وكذلك قال وصيفه الحاكم الفرنسي في الجزائر في المناسبة نفسها:

«إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية»[٢].

٥- وقرأت طائفة من الرؤى الحسنة فاقرأها بقلبك قبل بصرك لتعلم كيف يُجازي الصالحون العاملون المثابرون درجات أعظم من درجات غيرهم، وقد نقلتها من الكتاب الجليل «الروح» للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

١- قال صالح البراد[٣]:

رأيت زرارة بن أوفى[٤] بعد موته فقلت:

رحمك الله ماذا قيل لك وماذا قلت؟ فأعرض عني.

قلت: فماذا صنع الله بك؟

(١) «قادة الغرب يقولون» لجلال العالم ص ٣١ نقلاً عن «عظمة القرآن الكريم» ص ١٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من أهل البصرة. له ترجمة يسيرة في كتاب الثقات لابن حبان.

(٤) زرارة بن أوفى العامري الحَرَشي، أبو حاجب، قاضي البصرة، ثقة عابد، مات في الصلاة سنة ٩٣، انظر «التقريب» ص٢١٥.

قال: تفضل علي بجوده وكرمه.

قلت: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف[(١)]؟

قال: ذاك في الدرجات العلى.

قلت: فأي الأعمال أبلغ فيما عندكم؟.

قال: التوكل وقصر الأمل[(٢)].

٢- ولما مات محمد بن سيرين[(٣)] حزن عليه بعض أصحابه حزنًا شديدًا، فرآه في المنام في حال حسنة، فقال: يا أخي قد أراك في حال يسرني فما صنع الحسن؟[(٤)].

قال: رفع فوقي بسبعين درجة.

قلت: ولمَ ذلك وقد كنا نرى أنك أفضل منه؟

قال: ذاك بطول حزنه[(٥)].

٣- ولما ماتت رابعة[(٦)] رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلّة استبرق وخمار من

---

(١) هو أبو العلاء يزيد وليس ابن يزيد، بن عبدالله بن الشخير، أحد العباد الزهاد، توفي سنة ١١١، انظر أخباره في «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) «الروح» ص ٣٦.

(٣) محمد بن سيرين الأنصاري بالولاء، أبو بكر البصري. ثقة ثبت عابد كبير القدر، مات سنة ١١٠، وانظر «التقريب» ص ٤٨٣.

(٤) الحسن بن يسار البصري الأنصاري بالولاء، ثقة فقيه، فاضل مشهور، مات سنة ١١٠ وقد قارب التسعين. المصدر السابق ص ١٦٠.

(٥) «الروح» ص ٣٧.

(٦) هي رابعة العدوية العابدة المشهورة. انظر أخبارها في «صفة الصفوة»: ٤/ ٢٧-٣١.

سندس، وكانت كفنت في جبة وخمار من صوف، فقالت لها: ما فعلت الجبة التي كفنتك فيها وخمار الصوف؟ قالت: والله إنه نزع عني، وأبدلت به هذا الذي ترين عليّ، وطويت أكفاني، وختم عليها ورفعت في عليين ليكمل لي ثوابها يوم القيامة.

قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا.

فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه!

فقالت لها: فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب[1]؟ فقالت: هيهات هيهات، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى.

قالت: قلت: وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها؟

فقالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا أو أمست.

فقلت: فما فعل أبو مالك؟ تعني ضيغمًا[2].

فقالت: يزور الله تبارك وتعالى متى شاء.

قالت: قلت: فما فعل بشر بن منصور[3]؟

فقالت: بخ بخ[4]، أعطي والله فوق ما كان يأمل.

قالت: قلت: مريني بأمر أتقرب به إلى الله تعالى.

---

(١) في «صفة الصفوة»: ٤/ ٣٤ عبيدة بنت أبي كلاب، وقد كانت من العابدات الزاهدات، انظر ترجمتها هناك.

(٢) أبو مالك العابد، كان ورده كل يوم أربعمائة ركعة. انظر ترجمته في «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٥٧-٣٦٠.

(٣) بشر بن منصور السّليميّ، أبو محمد الأزدي البصري، صدوق، عابد زاهد، مات سنة ١٨٠. انظر «التقريب» ص ١٢٤.

(٤) كلمة تقال عند الاستحسان.

قالت: عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك[1].

٤- وقال قبيصة بن عقبة[2]:

رأيت سفيان الثوري[3] في المنام بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي عيانًا فقال لي ... هنيئًا رضائي عنك يا ابن سعيد

فقد كنت قوامًا إذا الليل قد دجا ... بعبرة محزون وقلب عميد[4]

فدونك فاختر أي قصر تريده ... وزرني فإني منك غير بعيد[5]

٥- وكان شعبة بن الحجاج[6] ومسعر بن كدام[7] حافظين، وكانا جليلين، فقال أبو أحمد البريدي[8]: فرأيتهما بعد موتهما فقلت: أبا بسطام[9] ما فعل الله بك؟ فقال: وفقك الله لحفظ ما أقول:

---

(١) «الروح» ص ٣٨.

(٢) قبيصة بن عقبة بن محمد السوائي، أبو عامر الكوفي، صدوق، مات سنة ١١٥. انظر «التقريب» ص٤٥٣.

(٣) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أبو عبد الله، ثقة حافظ، فقيه عابد، إمام حجة، مات سنة ١٦١ وله أربع وستون سنة. انظر «التقريب» ص ٢٤٤.

(٤) أي القلب المُوْجَع: انظر «لسان العرب»: ع م د.

(٥) «الروح» ص ٤١.

(٦) شبعة بن الحجاج بن الورد العتكي بالولاء، أبو بسطام الواسطي ثم البصري، ثقة حافظ متقن، كان أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة، وكان عابدًا، مات سنة ١٦٠. انظر «التقريب» ص ٢٦٦.

(٧) مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي، أبو سلمة الكوفي، ثقة ثبت فاضل، مات سنة ١٥٣. المصدر السابق ص ٥٢٨.

(٨) لعله محمد بن موسى بن حماد، أبو أحمد البريدي، كما في «معجم البلدان»: ٢/ ١٢٦.

(٩) هذه كنية شعبة.

حبـاني إلهي في الجنان بقبـة ... لهـا ألف باب من لجين وجـوهرا
وقـال لي الرحـمن يا شعبة الذي ... تبحر في جمع العلوم فـأكثرا
تنعم بقـربي إنني عنك ذو رضًـا ... وعن عبديَ القوام في الليل مسعرا
كفـا مسعرًا عزًا بأن سيزورني ... وأكشف عن وجهي الكريم لينظرا
وهذا فعـالي بالذين تنسكوا ... ولم يألفوا في سالف الدهر منكرا[1]

٦- وقال بعض أصحاب ابن جريج[2]:

رأيت كأني جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على عامتها سرادقًا[3] ورأيت منها قبرًا عليه سرادق، وفسطاط[4] وسدرة[5] فجئت حتى دخلت فسلمت عليه، فإذا مسلم بن خالد الزَّنجي[6]، فسلمت عليه وقلت: يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة؟.

فقال: إني كنت كثير الصيام.

فقلت: فأين قبر ابن جريج وأين محله؟ فقد كنت أجالسه، وأنا أحب أن أسلم عليه.

---

(١) «الروح» ص ٤٢.

(٢) عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي بالولاء، المكي، ثقة فقيه فاضل، مات سنة ١٥٠ وقد جاز السبعين. انظر «التقريب» ص ٣٦٣.

(٣) قال محقق الكتاب: السرادق كل ما حاط بالشيء من حائط أو مضرب.

(٤) قال محقق الكتاب: الفسطاط بيت من شعر، أو مكان يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم أو غيرهما.

(٥) قال محقق الكتاب: السدرة: شجرة النبق.

(٦) مسلم بن خالد المخزومي بالولاء المكي، المعروف بـ«الزَّنجيّ»، فقيه، صدوق، مات سنة ١٧٩. انظر «التقريب» ص ٥٢٩.

فقال هكذا بيده: هيهات، وأدار إصبعه السبابة، وأين ابن جريج، رفعت صحيفته في عليين[١].

وهاته المنامات لا يقطع بها على الدرجات والتفاوت بين من ذُكروا لكن يستأنس بها ويرغب في سماعها لما تبثه من حماسة إيمانيّة.

٦- وقرأت كتاب «البصائر والذخائر» وهو كتاب جليل لإمام الأدب أبي حيان التوحيدي، وقد جاء فيه من تسبيحات أبي حيان الجليلة ما يلي:

«اللهم: إنك الحق المبين، والإله المعبود، والكريم المنان، والمحسن المتفضل، بك أحيا، وبك أموت، وإليك أصير، وإياك أؤمّل»[٢].

وقال: «اللهم: أنت الحي القيوم، والأول الدائم، والإله القديم، والبارئ المصور، والخالق المقدس، والجبار الرفيع، والقهار المنيع، والملك الصَفوح، والوهاب المَنوح، والرحمن الرؤوف، والحنّان العَطوف، والمنان اللطيف، مالك الذوائب[٣] والنواصي، وحافظ الدواني والقواصي، ومصرِّف الطوائع والعواصي».

وقال أيضًا:

«اللهم: إني أبرأ إليك من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على

---

(١) «الروح» ص ٤٤.

(٢) «البصائر والذخائر» ٢/ ٥

(٣) الذوائب: الشعر المضفور في الرأس. انظر «لسان العرب»: ذ أ ب.

بابك، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي، والشكر على نعمتك شعاري ودثاري[1]، والنظرَ في ملكوتك دأبي ودَيْدَني، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أمني وإيماني، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري».

وقال -أيضًا- رحمه الله تعالى:

«إلهنا: لا جمالَ إلا لوجهك، ولا إتقانَ إلا لفعلك، ولا نفاذ إلا لحُكمك، ولا بهجة إلا لعالَمك، ولا نور إلا ما سطع من لَدُنك، ولا صواب إلا في قضائك، ولا حلاوة إلا في كلامك، ولا قوام إلا بتأييدك، ولا تمام إلا بترتيبك، ولا صلاح إلا بتهذيبك، ولا مَضاء إلا بتسبيبك[2]، ولا سكون إلا في فنائك، ولا هناءة إلا في عطائك، ولا حكمة إلا في أنبائك، ولا أنسَ إلا مع أوليائك، ولا نشرَ إلا لآلائك، ولا بصيرة إلا بإلهامك، ولا سكينة إلا بإلمامك، ولا حجة إلا في أحكامك، ولا تدبير إلا بين نَقْضك وإبرامك، ولا وصفَ إلا لك، ولا وَجْد إلا بك، ولا توكل إلا عليك، ولا رحمة إلا منك، ولا تهالُك إلا عليك، ولا خير إلا عنك، ولا شرفَ إلا بتشريفك، ولا استبانة إلا بتعريفك، ولا اهتداء إلا بتوقيفك[3]، ولا إجابة إلا بتلطيفك، ولا رُشد إلا في تكليفك»[4].

وقال -أيضًا- رحمه الله تعالى:

---

(١) الشعار ما لامس الجسد، والدثار ما لبس فوق الشعار من الثياب، والمقصود أن شكر النعم ديدنه ومُلابسٌ له ومخالط.

(٢) أي لا مضاء للأمور بدون إرادتك، ومعنى مضاء: نفاذ.

(٣) أي بتعريفك.

(٤) المصدر السابق: ص ١٠٢.

«اللهم: إنه لا غَني إلا من أغنيته، ولا مكْفي إلا من كَفيته، ولا محفـوظ إلا مَن حفظته، فأغننا واكفنا واحفظنا، وإذا أَردت بقومٍ سوءاً فميزنا عنهم، يا أرحم الراحمين.

إلهنا: الرغباتُ بك موصولة، والآمال عليك مقصورة، والخدود لقدرتك ضارعة، والوجوه لوجهك عانية، والأرواح إليك مَشوقة، والنفوس إلى كهف غيبك مَسوقة، والأماني بك مَنُوطة[1]، والأيدي نحوك مبسوطة، والهمم إلى طلب مرضاتك مرفوعة، وآلاؤك عند جميع الخلق مشهودة ومسموعة، فآتنا اللهم من لَدُنك ما لاق بكرمك، وانف عنّا ما قد نفانا عن بابك، واشرح صدورنا للثقة بك، ووفقنا لما يُبيِّض وجوهنا عندك، ويُطيل ألسنتنا في تحميدك وتمجيدك، يا نعم المولى ونعم النصير»[2].

وقال -أيضًا- رحمه الله تعالى:

«إلهنا: لك عَنَت الوجوه، ولقدرتك ذلَّت الصّعاب، ولفضلك توجهَّت الرِّغاب، وعلى بابَكَ أُنيخَت الرِّكاب، وفيَ فنائك طُرحَت الرحال، وبك نيط[3] الرجاء، وإليك توَجهت السرائر، وبمناجاتك تلذذتَ الضمائَر»[4].

وقال -أيضًا- رحمه الله تعالى:

«اللهم: إنا إليك نَفْزع، وبابَك نَقرع، ولقدرتك نخضع، ومن عقابك نخشع، وبفضلك نَرْوى ونشبع، وفي رياضك نلهو ونرتع»[5].

(١) أي مُعلقة.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٧.

(٣) أي عُلق.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٠٩، ٤١٠.

(٥) المصدر السابق: ص ٤١٦.

٧- أما كتاب الإمام الذهبي[(١)] الجليل: «سير أعلام النبلاء» فهو من أجل الكتب وأعظمها، ولا يمكن الإتيان إلا ببعض مواطن الجلال فيه، فمن ذلك:

-«كَانَ سُهَيْلٌ بَعْدُ كَثِيرَ الصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَالصَّدَقَةِ، خَرَجَ بِجَمَاعَتِهِ إِلَى الشَّامِ مُجَاهِداً.

- وَيُقَالُ: إِنَّهُ صَامَ وَتَهَجَّدَ حَتَّى شَحُبَ لَوْنُهُ وَتَغَيَّرَ، وَكَانَ كَثِيرَ البُكَاءِ إِذَا سَمِعَ القُرْآنَ»[(٢)].

- كَانَ صَفْوَانُ بنُ سُلَيْم يُصَلِّي فِي الشِّتَاءِ فِي السَّطْحِ، وَفِي الصَّيْفِ فِي بَطْنِ البَيْتِ، يَتَيَقَّظُ بِالحَرِّ وَالبَرْدِ، حَتَّى يُصْبِحَ، ثُمَّ يَقُوْلَ:

- هَذَا الجَهْدُ مِنْ صَفْوَانَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، وَإِنَّهُ لَتَرِمُ رِجْلاَهُ حَتَّى يَعُودَ كَالسِّقْطِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَيَظْهَرُ فِيهِ عُرُوقٌ خُضْرٌ.

- رَأَيْتُ صَفْوَانَ بنَ سُلَيْمٍ، وَلَوْ قِيلَ لَهُ: غَداً القِيَامَةُ، مَا كَانَ عِنْدَهُ مَزِيْدٌ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ العِبَادَةِ[(٣)].

- وهذا ابن أبي ذئب كان يصلي الليل أجمع ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد من الاجتهاد.

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين، أبو عبدالله التركمانيّ الذهبي محدّث العصر، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألف مصنفات جامعة نافعة، وتوفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضرّ مدة يسيرة، رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى): ٩/ ١٠٠-١٢٣، لكن ليُحذر من طعن السبكيّ في الطبقات على شيخه الذهبي فإنه لا يلتفت إليه، والله أعلم.

(٢) ١/ ١٩٤، ١٩٥.

(٣) ٥/ ٣٦٤.

وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ثم سرد الصوم[1].

- وهذا هناد بن السَري - رحمه الله تعالى- يحكي سيرته أحد تلاميذه فيقول:

كان «كثير البكاء، فرغ يومًا من القراءة لنا، فتوضأ وجاء إلى المسجد فصلى إلى الزوال - وأنا معه في المسجد- ثم رجع إلى منزله فتوضأ وجاء فصلى بنا الظهر، وأخذ يقرأ في المصحف حتى صلى المغرب، قال: فقلت لبعض جيرانه: ما أصبره على العبادة!!

فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل!!»[2].

- وهذا سليمان بن طرخان، كان من العباد المجتهدين، يصلي الليل كله بوضوء عشاء الآخرة وكان هو وابنه يدوران بالليل في المساجد فيصليان في هذا المسجد مرة وفي هذا المسجد مرة حتى يصبحا.

وقال ابنه:

مكث أبي أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويصلي صلاة الفجر بوضوء عشاء الآخرة.

وقال أحد السلف:

(1) ٧/ ١٣٩، ١٤٠.

(2) ١١/ ٤٦٥، ٤٦٦.

ما كنت أشبّه عبادة سليمان التيمي* إلا بعبادة الشاب أول ما يدخل في تلك الشدة والحدة[1].

- وهذا الإمام عبدالرحمن بن القاسم العُتقي* تلميذ الإمام مالك -رحمهما الله تعالى- يحدث عن حال شيخه مالك فيقول:

«كنت آتي مالكًا غلسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة في عتبته فغلبتني عيني فنمت، فخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني -جارية- سوداء له برجلها وقالت: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة، ظنّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه عليه»[2].

- وهذا الحافظ الكبير عبدالغني المقدسي:

«كان لا يضيع شيئًا من زمانه بلا فائدة؛ فإنه كان يصلي الفجر ويُلَقن القرآن، وربما أقرأ شيئًا من الأحاديث تلقينًا، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاث مئة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل الظهر، وينام نومة، ثم يصلي الظهر، ويشتغل إما بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فإن كان صائمًا أفطر، وإلا صلى من المغرب إلى العشاء، ويصلي العشاء وينام إلى نصف الليل أو بعده، ثم قام كأن إنسانًا يوقظه... ويصلي إلى قرب الفجر... ثم ينام نومة يسيرة إلى الفجر، وهذا دأبه»[3].

---

(١) ٦/ ١٩٥.
(٢) ٩/ ١٢٠.
(٣) ٢١/ ٤٤٣.

- وهذا أخوه الشيخ أبو عمر كان يصلي بالناس مائة ركعة وهو مسن، ولا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته، وإذا رافق ناسًا في السفر ناموا وحرسهم يصلي. وكان كثير الأوراد والذكر، وكان ربما تهجد فإن نعس ضرب على رجليه بقضيب حتى يطير النعاس، وكان يكثر من الصيام، ولا يكاد يسمع بجنازة إلا شهدها، ولا مريض إلا عاده، ولا جهاد إلا خرج فيه، ويتلو كل ليلة سُبعًا مرتلاً في الصلاة، وفي النهار سبعًا بين الصلاتين، وإذا صلى الفجر تلا آيات الحرس ويس والواقعة وتبارك، ثم يُقرئ ويُلَقِّن إلى ارتفاع النهار، ثم يصلي الضحى فيطيل، ويصلي طويلاً بين العشائين، وكانت نوافله في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة، وله أذكار طويلة، وله أوراد عند النوم واليقظة وتسابيح، وكان يخدم بالجامع المظفري ويبكي الناس، وكان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته»(١).

الله أكبر، وقراءة مثل هذه الأخبار ترقق القلوب وتهذب النفوس وتعلو بالهمم.

- وقال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى مبينًا قواعد في بيان حال الأقران المتنافسين:

كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوًى وعصبية لا يلتفت إليه، بل يُطوى ولا يُروى... ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصم نفسه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ولحوم العلماء

---

(١) ٢٢/ ٥-٩.

مسمومة . . . وبكل حال فالجهال والضُلاّل تكلموا في خيار الصحابة، وفي الحديث:

«لا أحد أصبر على أذًى يسمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليرزقهم ويعافيهم»(١).

وقال الإمام الذهبي أيضًا:

«وقد عُلم أن كثيرًا من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به، لا سيّما إذا وثّق الرجلَ جماعةٌ يلوح على قولهم الإنصاف»(٢).

وقال أيضًا:

«وبكلّ حال كلام الأقران بعضهم في بعض يُحتمل، وطيُّه أولى من بثّه إلا أن يتفق المتعاصرون على جرح شيخ فيُعتمد قولهم، والله أعلم»(٣).

وقال أيضًا:

«وقد عُرف وَهْنُ كلام الأقران المتنافسين بعضهم في بعض، نسأل الله السماح»(٤).

---

(١) المصدر السابق: ١٠/ ٩٢. والحديث في صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٤٠.

(٣) المصدر السابق: ١١/ ٤٣١.

(٤) المصدر السابق: ١٧/ ٤٦٢.

٨- وهناك كتاب جليل جداً ألا وهو كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» للإمام أبي شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥ رحمه الله[1]، وقد ذكر في الكتاب أحوال السلطانين العظيمين: نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، فقال، رحمه الله تعالى، واصفًا حال نور الدين وناقلاً كلام الحافظ ابن عساكر فيه:

«هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة مَن سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى رَوى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه - وكان قد استُجيز له ممن سمعه وجمعه- حرصًا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث.

يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى مَن تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله بإسقاط المنزلة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكن له في البلدان والبقاع».

(١) الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المقرئ النحوي، الملقب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر. له مصنفات عديدة مفيدة، وكان متواضعًا، محبًا للعزلة والانفراد. قتلته الباطنية سنة ٦٦٥ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/ ١١٣-١١٦.

ثم قال - بعد كلام كثير - :

«ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة»[(١)].

وقد نقل الإمام أبو شامة من سيرته حادثة ضخمة تدل على حسن صلته بالله -تعالى- وذلك حين قاتل الصليبيين في حارم، بلدة شمال حلب، وكان نور الدين آنذاك في قلة من جيشه فقد أرسل طائفة منه للرباط في مصر، فقال أبو شامة:

«كسر نور الدين الروم والأرمن والفرَنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفًا، قال: ووقع بيمَند[(٢)] في أسره في نوبة حارم وباع نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين - رحمه الله- لما التقى الجمعان أو قُبَيله انفرد تحت تل حارم وسجد لربه - عز وجل- ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يا رب: هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك[(٣)]، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

---

(١) «مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»: ١٧٩، ١٨٠.

(٢) واسمه اللاتيني بوهيمند هو أمير أنطاكيا الصليبي، ويُدعى بوهيمند الثالث، وكان أبوه وجده أمراء على أنطاكيا، واشترك هو وريموند الثالث أمير طرابلس في الحملة ضد نور الدين في حارم، وأسر بوهمند وريموند معًا وافتدى بوهمند نفسه بمائة وخمسين ألف دينار ذهبي، وهو مبلغ ضخم جداً جدًا: وانظر ترجمته وافية في «ويكبيديا» باللغة الانجليزية واسمه فيها: Bohemond of Antioch.

(٣) العبيد المسلمون هم عبيد اختيار، والعبيد الكفار هم عبيد اضطرار.

وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر»[١].

وهذا المنام الذي ذكره أبو شامة هنا عَرَضًا أورده في مكان آخر فقال لما أخذ الصليبيون دمياط في صفر سنة ٥٦٥:

«لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً.

قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نور الدين - رحمه الله- بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قُرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم[٢]، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عُرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله -تعالى- أن يراني متبسمًا والمسلمون محاصَرون بالفرنج[٣].

---

(١) «مختصر الروضتين في أخبار الدولتين» ص ١١٦، ١١٧.

(٢) الحديث المسلسل هو «ما تتابع رجال إسناده عند روايته على صفة أو حالة، إما في الراوي أو في الرواية»، ومعنى «على صفة» أي ما اتصف به الراوي مثل القراء أو القضاة، أو ما اتصفت به الرواية مثل صيغ الأداء كحدثنا وسمعت. ومعنى «أو حالة»: وهي إما قولية مثل حديث معاذ «إني أحبك فقل»، أو فعلية كحديث التشبيك... انظر «مباحث في الحديث المسلسل» للأستاذ: أحمد أيوب محمد.

(٣) الله أكبر، أما نحن فنظل نضحك ملء أفواهنا ومصائب المسلمين أكثر من أن تُحصر.

وبلغني أن إمامًا لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة.

فقال: يا رسول الله: ربما لا يصدقني، فاذكر لي علامة يعرفها.

فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محمودًا، من هو محمود الكلب حتى يُنصر.

قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بَغَلس[1] ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألحّ عليّ في ذلك، فقلتها، فبكى - رحمه الله- وصدق الرؤيا.

فأرّخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة[2].

وهذا يدل على حسن صلته بالله تعالى، وقوة يقينه، رحمه الله وأعلى درجته في عليين.

٩- ومن الأمور الدالة على ضعف الصلة بالله ومن ثم ضعف العمل وأثره هو خلط العمل بالمعاصي الكبائر، والاستهانة بهذا الأمر والإقدام عليه، وكم من الناس من سعى في الأرض سعيًا حثيثًا، وضرب فيها يمينًا ويسارًا سنوات طويلة وترك سعيه هذا وضربه ذلك في الأرض آثارًا ربما تكون ملء السمع والبصر، لكنها آثار ناقصة لم تكتمل، ولم يبارك الله تعالى فيها، فهي كالمولود الخِداج

(١) الغَلَس: ظُلمة آخر الليل.

(٢) «مختصر الروضتين في أخبار الدولتين» ص ١٣٩، ١٤٠.

الناقص الذي يظل يعذب أهله طويلاً وربما في النهاية لا يمكث في الأرض، أو إن يعش عاش ناقصًا ضعيفًا لا يصلح للأعمال الجليلة العظيمة.

ويحضرني لهذا مثال من عصرنا مهم، يدل دلالة واضحة على ما أريد، ألا وهو «البنك العربي» وإنشاؤه ليكون نواة لاقتصاد مستقل في زمن الاستخراب العالمي، وكان كما أراد له صاحبه أن يكون، وفتحت له فروع في أماكن شتى، وانتشر في البلاد العربية لكنه لقيامه على الربا، وعدم رضا صاحبه بتحويله إلى مصرف إسلامي - على أنه قد مُحض له النصح في هذا - ظل تأثيره ناقصًا، وصار عمله خداجًا، وإليكم القصة: قصة إنشائه ومن ثم عدم رضا صاحبه بتحويله إلى مصرف إسلامي، وقد حكى قصته الأستاذ توفيق الشاوي[1] الذي قابل مؤسسه عبدالحميد شومان[2] في المغرب وقص عليه خبر كفاحه في إنشاء المصرف، ومن ثم ما جرى من إلحاح الأستاذ الشاوي عليه بتحويله إلى مصرف إسلامي واستغراب الرجل من الفكرة ورفضه لها، وإليكم ما قاله الأستاذ توفيق واصفًا العلاقة بين عبدالحميد شومان ومحمد طلعت حرب[3] وناقلاً لقصة تأسيس «البنك العربي»:

(١) أحد القانونيين الإسلاميين، وأحد من قام مشروع المصارف الإسلامية على أكتافهم، وكان له عمل متصل دائب في الجزائر قبل وأثناء وبعد ثورتها، وكان له جهود في المغرب العربي، وفي المملكة العربية السعودية مع ملكها فيصل رحمه الله، وله عدد من المؤلفات في القانون والاقتصاد والسياسة، وقد توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، بعد فالج نزل به.

(٢) وُلدَ بقرية بيت جنينة قرب المقدس سنة ١٣٠٧هـ ونشأ بها يعمل في تكسير الحجارة، وذهب إلى أمريكا فعمل بائعًا متجولاً، ثم صاحب دكان ١٨ عامًا، ثم عاد إلى القدس وأنشأ «البنك العربي» وله ٥٠ فرعًا في الدول العربية وغيرها، توفي بمدينة براغ في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٣٩٤هـ ونقل إلى القدس ليدفن بها. انظر: «الأعلام»: ٣/ ٢٨٦.

(٣) محمد طلعت باشا بن حسن بن محمد حرب زعيم مصر الاقتصادي، وُلدَ بالقاهرة سنة ١٢٩٣هـ، وذكر أن أصله من قبائل حرب بالحجاز، تخرج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، وعين مترجمًا فمديرًا لبعض الشركات، ثم أنشأ شركة التعاون المالي، ثم دعا إلى إنشاء بنك مصري فعورض =

لم يكن لي الحظ في لقاء طلعت حرب أو الحديث معه ولكني سعدت بلقاء المرحوم عبد الحميد شومان لأول مرة في الرباط عاصمة المغرب الأقصى في منزل صديقه المرحوم الشيخ منصور قدارة الذي كان سفير ليبيا في المغرب في عام ١٩٦٠م، وروى لي قصة كفاحه وحياته، وعرفت منه حقيقة لا يعلمها كثيرون، وهي أن فكرة إنشاء البنك العربي كانت ثمرة لاتصاله بطلعت حرب وإعجابه به.

قال شومان:

خرجت من القدس، من جوار المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، متوجهًا إلى «نيويورك» وليس معي شيء من المال، لقد أقرضني بعض أقاربي ثمن تذكرة السفر إلى أمريكا بالدرجة الرابعة على ظهر السفينة لأبحث عن عمل.

سافرت وليس معي من سلاح للكفاح في ميدان الحياة سوى الاعتماد على نفسي، فاعتمدت أولاً على ذراعي هاتين - وأشار بهما إلى أعلى - لأنني لم أدخل مدرسة ولم أحمل شهادة.

بدأت حياتي الجديدة في نيويورك، عاملاً بيدي، فمارست جميع الأعمال، من أعمال البناء إلى العمل في المصانع حتى استقر بي المطاف في مصنع للنسيج كان يملكه أمريكي من أصل إيرلندي، لقد قربني إليه أنه كان يكره الاستعمار البريطاني، بل كان يكره الاستعمار الصهيوني، ويعتبره أخطر من الاستعمار البريطاني، إنه كان يحسدنا نحن العرب في فلسطين؛ لأننا نرفض الصهيونية ونقاومها، إنه كان يقول: إن هذه ميزة لنا على جميع شعوب العالم التي لم تشعر بهذا الخطر، وفي

= لكنه دأب إلى أن نجحت دعوته فأنشأ «بنك مصر» وألحق به فروعًا وشركات ضخمة كان معظمها من نتاج تفكيره وجهده، ولم تحسن مكافأته في آخر أيامه، وهو كاتب باحث له عدة كتب ورسائل دافع في بعضها عن الحجاب، وكان من أعضاء الجمعية الجغرافية، توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٠هـ رحمه الله تعالى، «الأعلام»: ٦/ ١٧٥، ١٧٦.

مقدمتها أمريكا التي يقول: إنها خرجت من السيطرة البريطانية لتقع فريسة للسيطرة الصهيونية، إنه كان يقول لي: «أنتم أحسن حظًا منا في هذه البلاد العظيمة؛ لأنكم ترفضون السيطرة اليهودية وتقاومونها؛ ولذلك سيكون لديكم أمل في التحرر من أطماعها، أما هنا فالشعب لا يحس بالقيود التي فرضتها عليه الصهيونية، فلا أمل له في التحرر منها طالما أنه يستسلم لها ولا يفكر في مقاومتها».

منذ بدأت حياتي في أمريكا لم أنس قط أهلي ووطني وخاصة أولئك الذين ساعدوني في السفر وقدموا لي ما يمكنني من دفع ثمن التذكرة في الباخرة، وتعهدوا برعاية أهلي حتى أعود لهم، لقد جعلت أمامي هدفًا لا أحول عنه، هو أن أعود إلى فلسطين لأسدد ديوني، وأرد الجميل للذين قدموا لي مساعداتهم.

كنت أدخر من أجري كل ما أستطيع أن أوفره؛ حتى تجمع لي قدر لا بأس به من المال، فعرضت على صاحب مصنع النسيج أن أشاركه فرحب بذلك، واتسع المصنع وتضاعفت أرباحه، ثم عرضت عليه بعد ذلك أن أشتريه كله، فباع لي نصيبه.

كنت أعيش على غذاء نباتي، وقد رفضت تناول اللحم منذ أخبرني من أثق فيه بأن «النصارى» لا يذبحون، فحرمت لحومهم على نفسي، ثم حرمت جميع اللحوم واقتصرت على الغذاء النباتي بعد أن تأكدت أنه أصح لبدني، وسأبقى على هذا المبدأ ما حييت إن شاء الله.

كان بعض زملائي المهاجرين إلى أمريكا يأخذون عليَّ ذلك، ويعجبون منه، وظن بعضهم أنني أفعله من باب الاقتصاد في النفقات، ولا يفهمون أن من طبعي دائمًا أن أرسم طريق حياتي وعملي بإرادتي وحدها، وعندما أقرر أمرًا لا أقبل التراجع فيه لأي عذر من الأعذار، وهذا هو شأني بالنسبة للتدخين، فأنا

لم أدخن قط، ولن أدخن، وعندما أنشأت «البنك العربي» التزمت بمبدأ ألا يعمل معي فيه من يدخن، وبذلك أعطيت لغير المدخنين فرصة أوسع للعمل، وميزة لا تتوفر لمن يستسلمون للتدخين، هذا هو مبدئي.

أذكر أنني توجهت مرة إلى طبيب للعيون في نيويورك، فأصر على أنه يلزمني عمل نظارات، وعملتها فعلاً وذهبت بها إلى غرفتي، وعندما وضعتها على عيني ونظرت إلى وجهي في المرآة، وجدتها لا تعجبني، وأدركت أنني لن أصبر على حملها كلما أردت السير، فألقيت بها من النافذة، ولم أقبل أن أضع نظارة منذ ذلك اليوم، وقد مضى على ذلك ما يزيد على أربعين عامًا، وعيناي تكفياني، ولا أحتاج لنظارات، وسأبقى كذلك طول حياتي، كما أنني لم أشرب الخمر، ولا أحب رؤية من يتعاطاها أمامي.

ولم يعجبني سلوك كثير من المهاجرين، الذين نسوا خصال مجتمعهم العربي في أوطانهم، واندمجوا في المجتمع الجديد بكل ما فيه من صفات وسيئات وخاصة شرب الخمر؛ ولذلك كنت أتجنبهم وأبتعد عنهم، كان أكثرهم من نصارى لبنان، ولقد حدث أن التقيت بأربعة منهم، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، ودعوني إلى طعام وشراب فرفضت، وسألوني عن السبب، وفهم بعضهم من حديثي أن الخمر نجس، وأن اللحم غير المذبوح حرام على المسلمين، وأحسوا باستعلائي عليهم، فبدرت من أحدهم إهانة للإسلام والمسلمين، فهجمت عليه ولكمته على وجهه لكمتين، ففر زملاؤه، وفر هو كذلك هاربًا، ولم أرهم بعد ذلك، إنني أعتز بإسلامي ولا أتسامح مع من يهاجمه أو يجرحه».

كان محدثي طويل القامة عالي الهامة، وعندما وصل في حديثه إلى تلك

المشادة بينه وبين «النصارى» واللكمات التي كالها لأحدهم على وجهه لم يكتف بالتعبير عن ذلك بكلامه، بل فوجئت به يضرب بلكمتيه يمينًا ويساراً، ومن حسن حظي أن مرت اللكمات من فوق رأسي قبل أن أفكر في تفاديها.

لقد كانت هوايته ورياضته المفضلة هي المشي على الأقدام، وكان يمشي وحده ساعات طويلة، إذا لم يجد من يرافقه من أصدقائه، وقد عرفني به صديقنا السيد منصور قدارة سفير ليبيا في المغرب آنذاك، وقد استراح لصحبتي وأعجبت بشخصيته، وعندما دعاني للخروج معه لنتمشى حذرني منصور قدارة بقوله: «اعمل حسابك على ساعتين، مشيًا على الأقدام، فإن الرئيس لا يمشي أقل من ذلك».

بعد أن ابتعدنا عن مدينة الرباط، تركنا السيارة ومشينا على أقدامنا في طريق «الرماني»، وقد نسيت تعب المشي، وأنا أستمع إلى حديثه عن حياته وكفاحه من أجل إنشاء «البنك العربي».

«بعد بضع سنوات من العمل والكفاح في أمريكا بدأت أفكر في العودة إلى فلسطين الحبيبة، وهزني الشوق لأهلي وأحبابي بالقدس الشريف، وأرضه الغالية، وقعدت أحسب ما ادخرته من كسب يدي وأرباح تجارتي، وأفكر في المشروعات التي يمكن أن أبدأها في فلسطين عندما أعود إليها.

ذهبت لزيارة أحد العرب في أمريكا، وكان معه عدد من المهاجرين يتحدثون عن أخبار فلسطين والعالم العربي، وسمعت حواراً بينهم بشأن رجل ظهر في مصر سمى «طلعت حرب» دعا إلى إنشاء «بنك مصر»، وفهمت من الحوار أن مشروعه في طريق النجاح والنمو المصري وطبقاته، وإن العرب يستبشرون بذلك؛ لأنه أنشأ أول بنك في العالم تستعمل فيه اللغة العربية وحدها في كل

أعماله ووثائقه وحساباته، وأكثر من ذلك فإنه لا يعمل فيه أجنبي واحد، بل كل العاملين به من المصريين، ولقد كانت الأحاديث التي سمعتها تعبر عن حماس الجميع لهذا المشروع المصري العربي.

ورغم أنني لم أشترك في الحوار إلا أنني تأثرت به إلى درجة جعلت هذا الموضوع يشغل ذهني طول الليل، وخطر لي أنني لا بدّ من أن أرى طلعت حرب بمجرد عودتي لفلسطين وأتحدث معه، وأشترك معه في هذا البنك بالمال الذي أحمله معي من أمريكا، وفكرت في أن أبعث له برسالة.

إنني لم أتعلم القراءة والكتابة بأي لغة، وكان ذلك من أشد العقبات التي واجهتني في حياتي، ولو سردت لك بعضًا من هذه الصعوبات لكنت في حاجة لأيام وساعات طويلة، ولكني والحمد لله استطعت أن أشق طريقي في الحياة وأصبح مؤسسًا ورئيس مجلس إدارة البنك العربي العملاق، وأنا أمي لا أقرأ ولا أكتب، ورغم إلحاح كثير من أصدقائي فإنني لم أجد الوقت الكافي لأبدأ في تعلم القراءة والكتابة.

قررت أن أعود لمنزل صديقي الذي اجتمعنا به بالأمس ليكتب لي الخطاب، وقد أعجب الرجل بفكرتي، وأثناء حواري معه خطر لي خاطر أكثر جرأة، فطلبت منه أن يكتب أنني عازم على العودة إلى القدس الشريف لإنشاء بنك مماثل لبنك مصر، وأنني أرجو أن يشترك معي بنك مصر في تأسيسه حتى نستفيد من خبرة إخواننا المصريين ومعاونتهم، واقترحت أن يكون اسمه بنك «مصر فلسطين» أو «البنك المصري العربي».

تحمس الكاتب نفسه للفكرة، وأضاف في الخطاب أن كثيرين من العرب المقيمين في أمريكا مستعدون للمساهمة في هذا المشروع، وهم يعقدون آمالاً

كبيرة على إجابته على هذا الخطاب ليبدؤوا في إجراءات التأسيس بالتعاون مع بنك مصر ورجاله».

توقف محدثي عن الكلام فقلت له متلهفًا: وهل أجاب طلعت حرب على هذا الخطاب؟

«نعم... ولكنني قضيت ليالي طويلة أترقب هذا الجواب، وأنا بين اليأس والرجاء، تراودني الشكوك في وصول خطابي إلى مصر واطلاع رئيس بنك مصر عليه واهتمامه به ورده عليه، ولا أستطيع أن أصف لك سروري عندما تسلمت رده على خطابي، والذي زادني سرورًا أن الإجابة كانت مشجعة، وأن الرجل رحب بالفكرة وقال: إنه يتمنى أن ينشأ في كل بلد عربي مثل هذا البنك، وأن فلسطين هي أقرب بلد عربي لبلادنا وقلوبنا، فهي جديرة بأن تكون البادئة، وإنه مسرور أكثر؛ لأن المقيمين في أمريكا من العرب أو المهاجرين إليها ما زالوا يفكرون في مصالح بلادهم ويتابعون أخبارها... إلخ.

لم أضيع وقتًا كثيرًا في تصفية جميع أعمالي في أمريكا، والاستعداد للرحيل عنها عائدًا إلى القدس سعيدًا بأنني وجدت الفكرة التي تجعل عودتي لبلادي بداية الجهاد من أجل شعبنا العربي في ميدان يحتكره للآن أعداؤنا ويتخذون هذا الاحتكار وسيلة لاستغلال بلادنا واستعباد أمتنا والقضاء على مقومات شعوبنا ومجتمعاتنا.

حملت معي عناوين جميع أصدقائي من العرب الذين يقيمون في أمريكا بصفة دائمة أو مؤقتة، الذين وعدوني بالمساهمة في تأسيس البنك المصري العربي الذي سيكون أول امتداد لبنك مصر الذي أنشأه طلعت حرب، وأول بنك عربي خارج مصر يولد في حجر مؤسس بنك مصر وينشأ في رعايته

وحضانته، وودعني أصدقائي عند سفري على أنني ذاهب إلى القاهرة لمقابلة طلعت حرب نيابة عنهم وباسمهم، وأن القدس الحبيبة ستكون محطة في طريقي إلى مصر العزيزة.

كان أول ما فعلته في القدس عقب وصولي إليها ولقائي مع أهلي وأصحابي أن أعلنت لهم المشروع الذي عدت من أجله وطلبت منهم أن يستعدوا للمساهمة فيه، وأن يدعوا كل من يعرفونه لذلك، وأضفت من عندي أن طلعت حرب - أبو الاقتصاد المصري ومنشئ بنك مصر - سيكون رئيس هذا البنك وراعيه، وزدت بأن أعلنت لهم أننا اتفقنا مع طلعت حرب على كل شيء بما في ذلك اسم البنك الذي سيربط بين شعب مصر وشعب فلسطين... إلخ.

وفي الوقت نفسه بعثت برسالة عاجلة إلى طلعت حرب بالعنوان نفسه الذي أرسلت عليه الخطاب السابق، وشرحت له فيه ما يلقاه المشروع من تأييد حماسي لدى جميع من علم به من أهل فلسطين سواء منهم المقيمون في أمريكا أو على أرض فلسطين الحبيبة، وانتظرت الجواب كما انتظرت جواب خطابي السابق. ولكنني كنت واثقًا من الإجابة، ولم تساورني الشكوك التي ساورتني عندما كنت أنتظر جواب الخطاب الأول، فضلاً عن أن المقابلات والاجتماعات مع معارفي وأصدقائي الراغبين في المساهمة في البنك شغلتني عن كل شيء، إلا عن التفكير في برنامج أول زيارة يقوم بها طلعت حرب إلى بلادنا لاتخاذ الخطوات النهائية للتأسيس.

جاء الجواب متأخراً أكثر مما كنت أتوقع، وفوجئت به، ولا أريد أن أصف لك شعوري عندما قرأت عبارات الأسف التي أبداها طلعت حرب في خطابه؛ لأنه لا يستطيع أن يفي بما وعد به من قبل؛ لأن مجلس إدارة بنك مصر يرى أن

البنك المصري ما زال وليدًا ناشئًا وليس لديه من الإمكانيات ليسهم في أي مشروع آخر خارج مصر؛ ولكنه مع ذلك يتمنى لنا النجاح في المشروع معتمدين على أنفسنا في حدود استطاعتنا، والله المعين.. وهو المستعان».

وصل تأثر شومان أقصاه عندما وصل إلى هذه النقطة، ووقف كأنه يلهث أو يسترد أنفاسه بعد جهد كبير لينسى الساعات الأليمة التي مرت به بعد وصول هذا الخطاب، وكان أكثر ما قاساه هو ما لقيه من انصراف الكثيرين ممن تحمسوا للمشروع ووعدوا بالمساهمة فيه، ولم يثبت معه إلا أقاربه وبعض المخلصين من أصدقائه مجاملة له، وكأنهم يئسوا من نجاح المشروع.

قلت له كأنما أعزيه، وأنا أشير إلى السيارة لنعود بها من حيث جئنا بعد هذا المشوار الطويل: لا بدّ أن نعود، فوافق مسرعًا كأنما يفر من ذكرى تلك الأيام التي مر بها، وسرنا إليها صامتين، وأنا لا أجرؤ على توجيه أي سؤال جديد خشية أن يزيد ألمه.

وفي طريق العودة وقفنا بالسيارة على شاطئ «وادي الرقراق» ذلك النهر الواسع الذي يحتضن مدينة الرباط، ثم وضع يده فوق كتفي كأنما يريد أن يتكئ عليها، وقال لي وهو ينظر إلى مياه النهر الهادئة الجامدة كأنها دموع قد تحجرت:

«إن طلعت حرب كان المثل الذي أقتدي به، رغم أنه خذلني، وتركني أعتمد على نفسي في السنوات القليلة التي مرت بعد هذا الخطاب، كنت غارقًا في مشكلات البنك وقضاياه، ولم يكن لي إلا هدف واحد: هو أن ينجح مشروعنا، وأن أبعث برسالة إلى طلعت حرب ليحضر لزيارتنا في القدس.

وكنت مع ذلك أتتبع أخبار مصر وبنك مصر ، وأخبار طلعت حرب ، وعلمت منها أن الرجل لم يخلف وعده الذي بعثه لي باختياره ؛ ولكنه لقي معارضة عنيفة في مجلس الإدارة ، وأن الذي كان يقود المعارضة ويحمل رايتها مجموعة من اليهود أمثال داود عدس وشيكوريل وأعوانهم الذين تسللوا إلى مجلس الإدارة بحكم الأسهم التي حصلوا عليها باعتبارهم مصريين .

وكانت حجتهم أنهم شاركوا في بنك مصر على أساس أنه بنك «وطني مصري» وأن الوطنية المصرية هي التي كانت سبب نجاحه ؛ ولذلك فلا يجوز المغامرة به في نشاط خارج حدود مصر .

ولم أدهش بعد ذلك عندما علمت أن هذه المجموعة اليهودية قد تآمرت لإخراج طلعت حرب من البنك الذي أنشأه وكان بالنسبة له حياته وأمله ، وأن أحد رؤساء الوزارات المصرية هو الذي نفذ هذه المؤامرة وأخرج طلعت حرب من بنك مصر في بداية الحرب العالمية الثانية ، ومات - رحمه الله - دون أن ينال من حكومة مصر ما كان يستحقه من تكريم يتناسب مع ما كان شعب مصر يكنه له من تقدير واعتراف بالجميل .

ولكن شعب مصر ما زال يعتبره أبا الاقتصاد المصري ، وبطلاً خالدًا من أكبر أبطال تاريخه الحديث ، أما العرب جميعًا فإنهم سيذكرونه دائمًا باعتباره أول من أنشأ بنكًا عربي اللغة فوسع مجال الوطنية لتكون عربية لا محلية ، وسيبقى طلعت حرب نموذجًا خالدًا للرجال الذين يستطيعون أن يحولّوا أفكارهم إلى مشروعات حية تنمو وتفرض نفسها على واقع المجتمع ومصيره .

وبالنسبة لي خاصة ، لقد كان لي قدوة وإمامًا ، وسوف أذكره بكل خير ما

حييت؛ لأن البنك العربي الذي أنشأناه في «القدس الشريف» كان امتداداً لبنك مصر الذي أنشأه طلعت حرب في القاهرة»(١).

هذه قصة مؤثرة لكنها تدل دلالة واضحة أن الإنسان إذا لم يجتهد في ضبط عمله بموجب الشريعة فإن أثر هذا العمل يكون ناقصاً ضعيفاً، وربما انقلب وبالاً عليه، وإليكم نصح الأستاذ توفيق له بأن يأخذ بالمعاملات الإسلامية في مصرفه لكنه تنصّل وتمحك:

«قبل مغادرة ألمانيا فكرت في عرض الأمر على السيد/ عبدالحميد شومان وكنت أعرف أنه يقضي الصيف في سويسرا، فاتصلت به في منزله بمدينة «زيورخ» والتقيت معه في البنك السويسري الذي يملكه «البنك العربي» في سويسرا ليكون قاعدة لعملياته في الخارج، وهناك عرضت عليه الفكرة، وذكرته بأحاديثنا السابقة، فقال: إن أول شيء يمكن عمله هو أن أقدمك لمدير البنك وهو محام سويسري يمكنك أن تتفاهم معه وتستمع لرأيه، وفعلاً التقيت بالرجل في مكتبه وتحدثت معه فأبدى بعض الملاحظات من ناحية الصياغة، لكنه قال: إن ما يتعلق بدور البنك في هذا الموضوع أمر تختص به إدارة البنك العربي في مقره الرئيسي، ولما عدت لشومان قال لي: إنه شخصياً لم يعد رئيس مجلس الإدارة، وإنما يتولى هذا المنصب ابنه الأكبر، ووعد بأن يقدمني له أثناء زيارة قادمة سوف يقوم بها للرياض حدد لي موعدها ودعاني للاتصال به في الفندق الذي سينزل فيه.

وفي نهاية اللقاء قال لي شومان: إنني أريد دعوتك للغداء معي؛ ولكنني كما تعرف نباتي، وهنا مطعم نباتي في المدينة أتردد عليه، فإذا لم يكن لديك

(١) «اقتصاد المستقبل»: ٣-١٤.

اعتراض لنذهب معًا، وسرنا على أقدامنا، مشوارًا طويلاً كالعادة حتى وصلنا للمطعم الذي يفضله، وتغدينا، وخلال هذه الفترة سمعت منه قصة شرائه لهذا البنك الذي كان يملكه بعض المؤسسات المالية في أمريكا الجنوبية، وأنه سارع لشرائه ليقوم من خلاله بالعمليات الخاصة بالبنك العربي في أوروبا؛ ولذلك فإنه يتعامل بالفائدة ولم يفكر قط في الخروج على هذا المبدأ، كما أنه لا يتوقع أن يجترئ أحد من البنوك القائمة فعلاً على الخروج عنه؛ لأن القوانين المصرفية والمدنية والتجارية في جميع أنحاء العالم تفرض التعامل بالفائدة، ونحن عندما أنشأنا البنك العربي كان هدفنا أن ندخل في الأوساط المصرفية والمالية، لا أن نخرج منها أو نخرج عليها.

قلت له: معنى ذلك أنك لا ترى أن يكون للبنك العربي دور في إنشاء هذه المؤسسة التي لا تتعامل بالفائدة إذا احتجنا إلى بنك قائم فعلاً في القيام بإجراءات التأسيس في إحدى البلاد التي نختارها.

قال: إنه شخصيًا لا يميل إلى أن يكون للبنك العربي أي طابع يخرج به عن نطاق العمل المصرفي العالمي حاليًا، لكن الأمر على كل حال من شأن مجلس إدارة البنك العربي والقائمين عليه، أما هو فليس له الحق في اتخاذ قرار في هذا الصدد، وعليّ أن أقنع رئيس مجلس الإدارة في لقائنا القادم معه في الرياض، ولا شك أنه سيعرض الأمر على مستشاريه وعلى مجلس الإدارة...».

«ولما عدت إلى الرياض التقيت ثانية مع السيد شومان في فندق قصر صحارى الذي كنت أنزل فيه فعلاً، وعرفني بابنه الأكبر رئيس مجلس إدارة البنك العربي.

وشرحت له الفكرة وأعطيت له المسودة، وطلب موعدًا لكي يتخذ قراره بعد الرجوع إلى مستشاريه وزملائه. وقبل أن يغادر شومان التقيت به مرة ثانية،

والتقيت مع ابنه الذي رد إليّ أوراقي آسفًا ومعتذرًا؛ لأن زملاءه لا يرون من المناسب أن يغامر البنك العربي في هذا المجال.

قلت لعبد الحميد شومان وأنا أودعه: لقد كنت عاتبًا على طلعت حرب لأنه لم يستطع أن يرتبط معك في إنشاء بنك خارج مصر بسبب معارضة مجلس الإدارة، وأظن أننا الآن أصبحنا «خالصين» واحدة بواحدة، فإن موقفكم لا يختلف كثيرًا عن موقف طلعت حرب، والفارق الوحيد هو أن مستشاريه وأعضاء مجلس إدارته الذين حالوا دون موافقة البنك على المشروع كانوا من اليهود، أما أعضاء مجلس إدارتك ومستشاريك الذين حالوا دون الموافقة على هذا المشروع فإنهم لم يكونوا يهودًا، بل كانوا عربًا ومسلمين فيما أعتقد!!

وكان معي أحد أصدقائي، فبعد أن ودعنا السيد شومان وأصحابه ونحن في طريقنا إلى الفندق قال لي: إنك نسيت شيئًا وهو أن أغلبية مجلس إدارة بنك مصر الذين رفضوا مشروع البنك المصري العربي لم يكونوا يهودًا، وإنما كانوا عربًا ومسلمين ولكنهم كانوا متأثرين برأي الأقلية اليهودية سواء كان ذلك عن خوف أو طمع، وكانوا يخشون اليهود المسيطرين على سوق المال خارج البنك وليس فقط الأقلية اليهودية في مجلس الإدارة، والآن ما زال هذا هو الوضع في مجلس إدارة البنك العربي؛ لأنهم لا يخشون اليهود وإنما يخشون المسيطرين على الدوائر المصرفية والمالية العالمية الذين لا يقبلون بسهولة وجود مشروع يخرج عن دائرة التعامل بالفائدة التي هي أساس التعامل المالي والمصرفي في العالم كله»[(١)].

هذه هي قصة «البنك العربي» وقد أغنانا الله عنه بعشرات المصارف والمؤسسات المالية التي تقوم على أساس إسلامي وتنبذ الربا، ولله الحمد.

---

(١) المصدر السابق: ١٢٠-١٢٤.

١٠- وقرأت كتابًا مهمًا في تاريخ ليبيا الحديث، وهو «صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي» ومصنفه رئيس وزراء ليبيا السابق آنذاك مصطفى بن حليم، وجاء فيه كلام مهم في شأن عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا آنذاك، فقد قال السيد مصطفى رحمه الله تعالى:

«في آخر يناير أوائل فبراير ١٩٥٧م لا أذكر بالتحديد، قام رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس بزيارة رسمية لليبيا وكان محل حفاوة بالغة في طرابلس وبنغازي والجبل الأخضر، ثم زار الملك في طبرق، وفي طريق العودة استضفته في بلدتي ودائرتي الانتخابية درنة، وخلوت به بعد أن رجوت من مرافقينا أن يتركونا لنمضي سهرة ثنائية على انفراد، وبدأت حديثي معه بذكر لمحة تاريخية عن دور الأتراك العظيم في نشر الإسلام وزعامتهم للأمة الإسلامية عبر قرون عديدة، وشددت على روابط الدين التي تربط الأتراك ببقية الأمة الإسلامية، وعلى أن لتركيا دورها الإسلامي بالرغم من دعاوى العلمانية، ثم عرجت بحديثي على شمال أفريقيا وشرحت لمندريس مدى الظلم الذي يعاني منه شعب الجزائر المجاهد ومحاولات فرنسا قمع ثورته الإسلامية وتنصيره وفرنسته.

ثم دخلت في صلب الموضوع وقلت لعدنان بك: إنني آمل أملاً قويًا أن تمد تركيا الشقيقة يد المساعدة لشعب الجزائر المجاهد في محنته الراهنة، وقال إنه كمسلم يعطف بكل جوارحه على الشعوب الإسلامية جميعًا، وبنوع خاص على شعوب الشمال الإفريقي، وهو على إدراك تام بما يعانيه الشعب الجزائري في حربه الاستقلالية، وأن تركيا بذلت الكثير من المساعي السرية الحميدة لدى حكومة باريس موصية وناصحة بأن مشكلة الجزائر لا تحل بالقوة والقمع بل بحلول سياسية وتفاوض مع ممثلي سكان الجزائر، وأضاف أنه على استعداد

لمضاعفة هذه المساعي بل توسيعها بحيث تشمل ضغطًا وديًا لدى دول حلف الأطلسي الأخرى مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا.

شكرته وشجعته على مواصلة تلك المساعي الدبلوماسية الطيبة ولكنني قلت له: إن مساعدة شعب الجزائر تتطلب أكثر كثيراً من المساعي الحميدة، فهي تتطلب عونًا ماديًا، أعني مالاً وسلاحًا، ونظر إليّ عدنان بك وبدى على وجهه شيء من الاضطراب واختفت الابتسامة التي لا تفارق وجهه إلا قليلاً، وفكر مليًا ثم قال يا أخي أنت تعرف أن تركيا عضو مهم في حلف الأطلسي فكيف ترى أن تقدم لثوار الجزائر سلاحًا من سلاح الحلف لكي يحاربوا به عضواً مهمًا آخر من ذات الحلف؟

قلت: أنا أعرف أن تركيا من أقوى الدول الإسلامية وهي التي كانت تتولى القيادة والريادة للأمة الإسلامية، فكيف ترى أنت يا أخي العزيز ألا تمد تركيا يد العون المادي للجزائريين المسلمين الذين تقتلهم قوات فرنسا وتعذبهم أنكل تعذيب؟ وما لهم من ذنب إلا أنهم يسعون لنيل حريتهم واستقلالهم؟

كرر مندريس مخاوفه الشديدة من عواقب اكتشاف أية شبهة أن تركيا تمد الثورة بأي عون مادي، وكرر عدة مرات بأن هذا سيسبب طرد تركيا من الحلف الأطلسي وهو الركيزة التي يرتكز عليها دفاع تركيا في مواجهة الخطر الروسي، وكنت أشعر بأن مخاوفه هي في الواقع مخاوف حقيقية، فهدأت من روعه وقلت إن الثورة الجزائرية في أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كشفًا مفصلاً بهذه الأسلحة وأهديتموها أنتم إلى شقيقتكم ليبيا فليس في هذا ما يثير أي شك أو ريب لدى فرنسا، وسنقوم نحن بتسريب ذلك السلاح تدريجيًا، وأعدكم بألا يعلم هذا السر إلا القيادة الجزائرية العليا بل عدد قليل جداً من أفرادها.

وبدأ يتأرجح في آرائه: أولاً قال إنه من السهل على فرنسا أن تربط بين ما تهديه تركيا لليبيا وما يصل للجزائريين بمراجعة العدد والنوع.

قلت: نستطيع أن نقطع الصلة بين هديتكم لنا وما نسربه للثورة بأن نحتفظ ببعض تلك المعدات لاستعمال الجيش الليبي، وكذلك بأن يكون تسريب السلاح بحذر شديد، ثم أضفت: لقد قمت مع نفر قليل من الأعوان بالمهمة السرية في تهريب كميات كبرى من الأسلحة، وعلى مدى سنتين لم تكتشف فرنسا شيئًا، وفي العام الثالث بدأت الشكوك والظنون حول دور الحكومة في التهريب ولم يستطيعوا إلى هذه الساعة أن يحصلوا على دليل واحد يدين الحكومة الليبية، لذلك اطمئن أخي عدنان أنك إذا وافقت على ما أقترحه فإن سرك لن يكشف أبدًا بعون الله، ولو انكشف الأمر فيمكنكم أن تقولوا إنكم قدمتم هدية لجيش ليبيا الشقيقة مبررين ذلك بالعلاقة التاريخية بين شعبينا، وتقولوا: أما إذا تسرب بعض ذلك السلاح خارج ليبيا فلستم أنتم المسئولين عن ذلك التسرب.

اقتنع وشدد على المحافظة على السرية المطلقة ولا أعتقد أن هذا السر أذيع قبل اليوم.

وبعد أسابيع قليلة وصلت هدية السلاح التركي واستلمها الجيش الليبي في احتفال عسكري ثم بدأ تسريبها تدريجيًا إلى ثوار الجزائر».

وهذه الأخبار التي أوردها مصطفى بن حليم لعدنان مندريس لم أعلمها من قبل، ولا أظن أن أكثر الأتراك يعرفونها، وهي تدل على رغبة صادقة منه في خدمة المسلمين، أحسبه كذلك، والله حسيبه.

١١- وهذه مقاطع متنوعة قرأتها في كتب مختلفة، وهي كلها من حياة كفار نصارى أو ملحدين، لأقول: إن كان هذا حالهم فكيف ينبغي أن يكون حالنا نحن المسلمين!! وأول الأمثلة قادة الاتحاد السوفيتي الهالك الذي دمره الله تعالى وجعله عبرة للمعتبرين: كيف صنعوا، وماذا قدموا؟

وأبدأ بمؤسس دولتهم وأول حكامهم: لينين، فقد نُفي إلى سيبيريا سنة ١٨٩٧م وعمره ٢٧ سنة، وقبل ذلك شهد محاكمة أخيه الذي حكم عليه بالإعدام شنقًا لمحاولته قتل القيصر، ثم تنقل في أوروبا سنوات في إصرار عجيب ليحقق الذي يدعو إليه من الشيوعية الملحدة، ثم عاد إلى روسيا، وصدر أمر بإلقاء القبض عليه بتهمة العمالة للألمان فهرب إلى فنلندا حيث كتب أهم كتاب له، ثم عاد بعد شهور ليتولى قيادة الاتحاد السوفيتي الناشئ، ثم تعرض لمحاولة اغتيال فتأثر بها ليموت بعد سنوات قليلة.

وزميله تروتسكي هو مُنظِّر الثورة على القيصر، وهو كذلك قد تعرض لمحن عديدة لكنه لم ييئس، فقد اعتقل سنتين وعمره ثمانية عشر عامًا، ثم نفي إلى سيبيريا لمدة ٤ سنوات بدون محاكمة، فهرب من سيبيريا بعد سنتين، وتنقل في أوروبا، ثم عاد إلى روسيا لينفى مرة أخرى إلى سيبيريا ثم هرب منها أيضًا إلى أوروبا الغربية، ثم طرد من فرنسا فلجأ إلى أمريكا ثم عاد إلى روسيا حيث سجن، ثم قام الاتحاد السوفيتي فتولى فيه مناصب، ثم بعد وفاة لينين تعرض لعدة محن في عهد ستالين، وهرب إلى أوروبا ومنها إلى المكسيك ليقتل هنالك سنة ١٩٤٠م.

أرأيتم معشر القراء إلى هذا العمل المتصل وعدم اليأس إلى أن قامت دولتهم البائدة، وحضارتهم الزائفة، وإلحادهم المقبور، وكفرهم المشهور[١] وعملهم

---

(١) من موقع للإنترنت.

هذا يصح أن يضرب - في أصله - مثلاً للمتخاذلين منا، القاعدين، الذين قنعوا من الصلاح بشعائر التعبد وتركوا شرائع التقرب بالعمل المتواصل والجد والاجتهاد.

- وهذه الأمريكية هيلين كيلر التي وُلدت عام ١٨٨٠م، تعرضت وعمرها ثمانية عشر شهراً فقط لمرض أفقدها النظَر والسمع والنطق!! فأخذت تستخدم الإرشادات للتفاهم مع من حولها. ثم عينت لها أسرتها مدرِّسة خاصة قامت على تعليمها القراءة بطريقة (بريل).

ثم هل تعلمون كيف تعلمت: كانت تفهم الأصوات وتُميزها عن طريق لمس حنجرة المدرسة وتحسس الذبذبات الصوتية بطريقة اللمس، ثم التحقت بكلية مكثت فيها أربع سنوات حيث كانت مدرستها تترجم لها المحاضرات بطريقة لمس باطن كفها!! ثم تخرجت في الكلية ووهبت باقي عمرها لمساعدة المعاقين، ثم أصبحت أديبة مؤلفة، لها عدة كتب، فسبحان الله كيف تغلبت على عجزها التام بإصرار عجيب وعن طريق لمس الجدران والحناجر استطاعت أن تُميز الأشياء والأصوات، بل الأعجب أنها صارت أديبة مؤلفة[1]!!

- وهذا الكولونيل ساندرز وصل عمره إلى الخامسة والستين، وكان فقيراً معدمًا، لكنه بدأ في هذا العمر بإنشاء مطعم ارتقى ليكون سلسلة مطاعم (كنتاكي) المشهورة، وسافر في سبيل تثبيت مطاعمه في ٩٢ دولة قرابة ثلاثين عامًا ليتابع بنفسه إمبراطورية الدجاج التي أنشأها بمثابرة عجيبة ولم يعرف اليأس قط[2].

---

(١) «عظماء ومشاهير معاقون» ص ٢٥٢-٢٥٦ بتصرف.

(٢) «حكايات كفاح» ص ٢٠٤-٢١٤.

- وهذا الياباني سيكيرو هوندا صاحب مصانع هوندا المشهورة، قد وُلِدَ في عائلة فقيرة جداً، وكان أبوه حداداً يصلح الدراجات الهوائية على الطَريق، فتعلم من والده وتعلق بالدراجات ثم ارتقى وجد واجتهد ليكون بعد ذلك صاحب مصانع هوندا الشهيرة وسجل باسمه أكثر من ٤٧٠ ابتكاراً وأكثر من ١٥٠ براءة اختراع، وكان قد ابتدأ بدخول عالم التصنيع بإنشائه مصنعًا صغيراً لكن الحرب العالمية الثانية دمرت هذا المصنع، وأصبح مُعدمًا تمامًا كما بدأ، لكنه لم ييئس، وهداه تفكيره إلى إنشاء الدراجات النارية ثم ارتقى مرة أخرى في عالم الصناعة، وله مقولة مهمة تدل على عزمه وتصميمه وعدم يأسه واستفادته من فشله وإخفاقه:

«عندما أنظر إلى الوراء أحس بأنني لم أحصد سوى أخطاء سلسلة من الأعمال الفاشلة والكثير من الندم!! غير أنني في المقابل فخور بما حققته، وعلى الرغم من أنني قمت بالكثير من الأخطاء واحداً تلو الآخر لكن ليس هناك خطأ أو فشل تكرر مرتين؛ لذلك أؤكد لكم أن النجاح يمثل ١٪ من عملنا الذي ينتج عن ٩٩٪ من فشلنا»، وله أخبار كثيرة وأعمال عجيبة دالة على عزمه وتصميمه وعدم يأسه[(١)].

أرأيتم معشر القراء كيف نفى أولئك الأشخاص اليأس من حياتهم فحصلوا على نتائج ضخمة، ونحن المسلمين - وخاصة الدعاة والعاملين - أولى منهم بهذه المثابرة وانعدام اليأس، وديننا العظيم يأمرنا بنفي اليأس واستقبال الحياة بالعمل والجد والمثابرة والاجتهاد.

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٢٢ - ٢٣١ بتصرف.

ومن العجائب التي تستحق الاعتبار في مثال لينين وتروتسكي وأضرابهما أنهم أقدموا على الموت وهم لا يعتقدون موتًا ولا نشورًا، ولا يؤمنون بخالق أصلاً، وهذا عندي من أعجب العجب فلنعتبر به ولنتعظ ولنعمل أكثر مما عمل أولئك فنحن نعتقد بالعبث والجزاء.

- واقرءوا هذا النص الخطير لأحد المبشرين القذرين في مؤتمر في القدس سنة ١٩٣٥م مخاطبًا أمثاله ممن ماتت ضمائرهم وخربت نفوسهم:

«مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها!! ولذلك تكونون أنتم طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خير قيام... لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع العشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات وفي المدارس التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية، وفي مراكز كثيرة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها!!... إنكم أعددتم بوسائلكم الخاصة جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد، إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تُدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم

بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء...»[1].

أرأيتم أحط وأسوأ من هذا الخطاب الذي يمتلئ شراً وفساداً وسوء نية، وفساد طوية، وقارنوا بين هذا الجهل المفسد وبين المسلمين الأوائل الذي نشروا الضياء والنور، وكانوا يريدون بالناس ارتقاءً وخيراً ورفعةً.

- ويخاطب الإمام المودودي[2] - رحمه الله تعالى - الأمة حاثًا لها على الجد: «من لوازم المجاهدة في سبيل الله تعالى حماسة القلب وتعلقه بالغاية... إن من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابنًا له مريضًا ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئًا يسد به رمق حياة أولاد فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم في سبيل غايتكم، تعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، تستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شئونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين، وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشئونكم الشخصية إلا أقل ما

---

(١) «جذور البلاء» لـ عبد الله التل: ص٣٧٥، ٣٧٦.

(٢) أبو الأعلى المودودي، العلامة الداعية، وُلِدَ في أورانج آباد في الهند سنة ١٣٢١هـ، واشتغل بالدعوة والجد والاجتهاد حتى استقلت باكستان عن الهند فانتقل إليها وطالب الحكومة بتطبيق الشريعة فسجن مراراً. نال جائزة الملك فيصل ١٣٩٩ هـ وله مؤلفات كثيرة، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٩٩هـ. انظر: «تتمة الأعلام»: ١/ ٧٣-٧٥.

يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكنًا بمجرد أقوالكم...»[1].

●●●

( ) «تذكرة دعاة الإسلام»: ص٤٠، ٤١.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فتلك كانت جولة سريعة أظهرت رحلتي مع القراءة منذ نعومة أظفاري إلى يوم الناس هذا، وقد استفدت بإخراجها أموراً، منها:

١- تدوين جزء من سيرة حياتي، فالقراءة جزء من شخصية المرء وعماد مهم في حياته، تظهر شمائل المرء، وتُطْلع على دخيلة نفسه.

٢- الاستجابة لمن طلب مني مراراً تدوين شيء في طريقتي في القراءة، وكيفية نظري في الكتب.

٣- إطلاع القراء على جملة من النصوص المهمة من بطون الكتب ربما لم يطلع كثير منهم عليها من قبل.

هذا والله -تعالى- هو المسئول أن يثيبني على ما صنعت، وأن يبارك لي فيما سطرت، وأن يبعد عني الرياء والسمعة والكبر.

وفي الرسالة القادمة -إن شاء الله تعالى- سآتي على «رحلتي في طلب العلم»، وبعدها: «رحلتي في التأليف»، عسى الله أن يمد في الأجل ويفسح في المدة.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد	٩
منعطف مهم	١٤
المبحث الأول: طريقتي في القراءة	١٧
القراءة المطولة	٢٠
أوقات القراءة	٢٥
ما انتهى إليه أمري في القراءة	٢٦
مكتبتي	٢٧
المبحث الثاني: الكتب التي أفضّل قراءتها	٣١
كتب العلوم الشرعية	٣٣
كتب الدعوة	٣٤
كتب اللغة	٣٥
كتب الأدب	٣٧
الكتب الثقافية	٤٣
المجلات الدعوية والثقافية	٤٤
الجرائد	٤٧

القراءة باللغة الإنجليزية ٤٨

المبحث الثالث: الكتب التي تركت آثاراً في نفسي ٥١

كتب أثرت فيّ ورأيت أن أخرجها للناس في ثوب جديد ٥٣

كتب أثرت فيّ لكني لم أُعمل فيها قلمي ٥٣

كتب أثرت فيّ لكني لم أُخرجها للناس في حلة أخرى ٥٥

١- «جنة الرضى فيما قدره الله تعالى وقضى» ٥٥

٢- «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر حال وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» ٥٦

٣- «في ظلال القرآن» للشهيد بإذن الله الأستاذ سيد قطب ٥٧

٤- «التحرير والتنوير» للأستاذ الطاهر بن عاشور، رحمه الله تعالى .. ٥٩

٥- «شبهات حول الإسلام» للأستاذ محمد قطب، حفظه الله تعالى . ٦١

٦- «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي ٦٢

٧- «الروح» لابن القيم ٦٤

٨- «كلاب الإله» لجيمس رُسْتُن ٦٥

٩- رحلة عبد الرشيد إبراهيم «عالم الإسلام» ٦٦

١٠- «مشارع الأشواق ومصارع العشاق» أو «مثير الغرام إلى بلاد السلام» لابن النحاس الدمياطي ٦٧

١١- كتابا جلال أحمد أمين ٦٩

المبحث الرابع: مقـاطع مختارة من كـتب قرأتها ٧٣
١، ٢- الإتقان في علوم القرآن ٧٥
٣- في ظلال القـرآن ٨٦
٤- قالوا عن الإسلام ٩٢
٥- الـروح ١١٥
٦- البصائر والذخائر ١٢٠
٧- سير أعلام النبلاء ١٢٣
٨- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١٢٨
٩- اقتصاد المستقبل ١٣١
١٠- صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي ١٤٥
١١- مقاطع من كتب متنوعة ١٤٨
خـاتمة ١٥٥